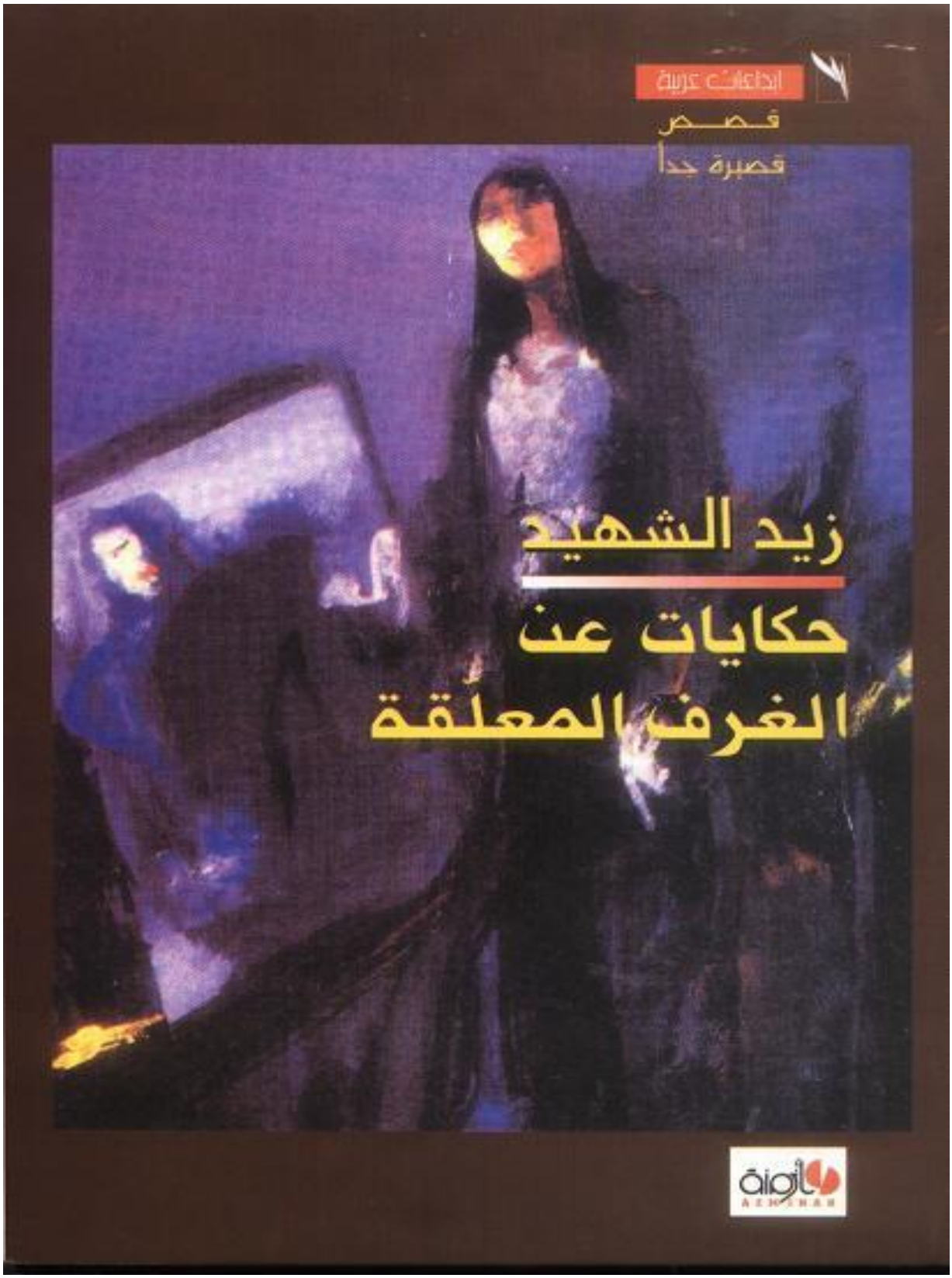
إبداعات عربية
قصص
قصيرة جداً
زيد الشهيد
حكايات عن
الغرف المعلّقة
أزمنة

زيد الشهيد

حكايات عن الغرف المعلّقة

قصص قصيرة جداً

الشهيد زيد
حكايات عن الغرف المُعلَّقة : قصص قصيرة جداً : زيد الشهيد
عمان – دار ازمنة 2003
(68) ص
* تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الاولية من قبل المكتبة الوطنية
رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية 1102 /2003/6
رقم الاجازة المتسلسل 2003/5/944
(ردمك) ISBN-09-132-8

الطبعة الاولى ، 2003

الفهرس

الاهداء
القصة القصيرة جداً
شهادات

مراثي الوجدان بين الشواهد

1-وصية
2-وفاء
3-مراثي الحزن
4-زيارة أخيرة

غوايات

1-غواية المازوت
2-غواية المطر
3-غواية الذباب
4-غواية أمّي
5-غواية المرتفعات
6-غواية الفلسفة
7-غواية الدفلى

توهجات أطياف نائية

1-بهاء أثيري
2- اكتشاف
3- امرأة باكية

سوناتات

1-بطاقتان
2-طفلان

3-مصوغتان

في وعاء الليل

تتّور الحياة .. تنانير الأسى

أمّهات

1..... 2..... 3.....

وقائع قروية

1..... 2..... 3.....

حكايات عن الغرف المعلقة

1-احباط

2-خواء

3-حطام

4-اشراقات غاربة

5-مجاهيل

\

الإهداء

إلى " السماوة " ... مدينةً
إلى الفرات ... ذاكرةً
إلى أمّي ... غياباً أبدياً
إلى الهواءِ المُعلَّب في قَفص الأحزان .
إليهم .....

الشهيد

القصة القصيرة جدّاً

1. بدءاً هي خلجةٌ تَنبني من تمازجٍ صُوري تنتهي بحال .. رؤيا مُستحالة لرؤية .. واقعٌ استوحاه الخيالُ سعياً لتقبّله مُتحققّاً .

القصة القصيرة جداً شخوصٌ أُريدَ لها أنْ تَتوجِد لتقول . ومكانٌ يُقدَّم له وصفٌ على أنّه زمان ؛ انبثاقٌ خَلقي حتَّمتهُ ظروفُ تشكّله في فضاءاتِ التلقّي .

أكتبُ القصة القصيرة جداً كحاجةٍ مُلحّة يتطلّبها اليومي ، مثلما أحسبُها تنفيساً لِهمٍّ ، وبوحاً إنْ لم يرسمُه حِبرُ الروحِ غدا غُباراً من ومضةٍ ستتبدّد لحظةَ الاستدارةِ ونقلَ الخُطى .

2. كانت كتابتي التدوينية لأغلبِ نصوصِ هذه المجموعة تسير – انتاجاً ونشراً– بخطٍّ متوازٍ مع تدوينات مجموعة " مدينة الحجر " الصادرة عام 1994 ، لكنَّ عصا الحصار التي استحالت لِحاقاً تتعقّبنا أنّى خطونا أرهقت مشروعَ إصدارِها في مجموعةٍ وتركتنا نلهث باتجاه المحطّات الخالية من همسات الرعب ... تشظَّت الحكايات .. لم تَعُد غير الحقائب نتداولُها . في جوفِها ترحلُ أفكارُنا المدوَّنة على ورقِ الذكرى وبين طيّات ملابسِنا المُختلطة بلا انتظام . فتتالت الأعوامُ .. وتتالت .. وتتالت !!

3. أخذت مجموعةُ " مدينة الحجر " منحىً طفولياً كان أبطالُها فتيةً نَهلوا من فضاء الريف ، وعاشوا تفاعلاً مع تفصيلاتِ محيطِهم ، مؤسطرينَ ما يرونه وما يقتحمهم تخيّلاً ... كنتُ أنقل خلجاتِ طفولةٍ تُبصر كلَّ شيءٍ جديدٍ ، وغريبٍ ، وغامضٍ ؛ مُحمَّلةً بفضول لا متناهٍ للاكتشاف .. تتلمَّسُ في الماحول سَيلاً من أسرارٍ تتطلَّب الانغمارَ في جوفِها ، وفك شفرات تمثّلها بينما شغلتني رغبةٌ وحاجةُ أنْ أكتبَ القصص القصيرة جداً بأجواءٍ واحدة تجمع أشتاتَ نفوسٍ آلمَها الهجرُ والفَقدُ ، والذكرى ... نفوسٌ انغمست في تماهياتِ احتراقٍ عذبٍ تارةً ، وألمٍ مُمِضٍّ تارات ... نفوسٌ نسائيةٌ وأخرى طفوليةٌ . وقلت أنَّ مِن حقِّ المرأةِ العراقيةِ أنْ تتألمَ إذْ هي تعيشُ الهُمومَ المتراكمة كالتلال . ومِن حَقِّه الطفلُ العراقي أنْ يهرب . ومِن حقّي تناولهما في مساري القصصي ؛ فهما الوحيدان _ إذا استثنينا جهودَ

الرجلِ الذي أُنيطت بـه مهامٌّ سيزيفيةٌ _ اللذان يَستحقّان نيلَ المسرّات كافتراضٍ وجودي ؛ ويستحثّاني _ مُقابلَ ذلك على استدراجِ مَكامن الانسحاقِ بغيةَ إشهارِ وفضحِ سُمومِ القيظِ الحيفي التي تلفح وجوهَ طمأنينتِهما بقسوةٍ بشريةٍ خَرقاء .

4. هي القصةُ القصيرة جداً إذاّ ...

هي الاحتراقُ العذبُ وسطَ حميميةِ طقوسِ الكتابةِ ، ورضا القراءةِ المُبتغاة .

زيد

في 1 / 4 / 2001

شهادات

التوهجُ الحقيقي، والاشراقُ الدافيء والصناعةُ المتقنةُ الخاليةُ من الميكانيكية، واللغة الشعرية الحيّة المليئة بالألوان والظلال نجدها في(توهجّات أطياف نائية) لزيد الشهيد.. هذا كاتبٌ يمتلكُ اللغةَ ولا تملكُه، يصنعُ عالَماً نابِضاً بالأشواقِ المجهولة، يراقصُ الزمنَ ويراودُ الذكرى بشجنٍ أخّاذ يأخذُ القلبَ ويبرأُ من البرودِ والتكلّفِ والادعاء.. كاتبٌ ينبشُ في غرفِ تذكاراتِه بقسوةٍ مُريعةٍ فيحقّق تجليات مشرقةً مستفيداً من لغةِ الشعرِ التي تسكنُه وتتسكبُ في هدوءٍ وببراعةِ مُصوّرٍ سينمائي يغوصُ بعدساتِه في أعماقِ النفس، مُلوّحاً لمجاذيب فرويد ودراويش باشلار أنْ يتبعوه ليفاجئَهم بنهايةٍ خاصةٍ ذاتَ قانونٍ مستقل.

مصطفى بيومي
صحيفة (أخبار الأدب) المصرية
4 يونيو/ حزيران 1995

لم أقرأ طوالَ حياتي قصصاً كـ (مراثي الوجدان بين الشواهد). قصصُ الأجواءِ المتشابهة؛ بل لم أقرأ قصةً تشظّت وحدها ففتّقت دروباً جديدة أرتني أُناساً يحملونَ آلامَهم ... فإنسانُها يكاد يُكلمني.

الروائي العراقي / كاظم الأحمدي

زيد الشهيد في قصته (غواية أمّي) يتابعُ الفعلَ المُنتَج من فعلٍ مغايرٍ؛ أي أنّه يبني حالةً سرعان ما تظهر أخرى وهي نظرةٌ تحليليةٌ لفعلِ الخطيئة... لا يمكن العثور على ترهُّلٍ في الوصفِ ولا يُنشىء ما لم يكُن له صلة بالبطلِ وحركته أو الفعل داخل القصة. كذلك يحاول أنْ يمنحَ الزمنَ القصصي إيقاعاً ملوّناً... وكان القاص دقيقاً في التناول... إنَّ الحِرفةَ القصصية تُحيلُ إلى اليقظةِ والتلقائية المُحددّة بوعيٍ عالٍ للأشياءِ والظواهر .

القاص والناقد جاسم عاصي
صحيفة الجمهورية / العراق
حزيران 1998

مراثي الوجدان بين الشواهد

1- وصية

هوَ الزمنُ نستهينُ بقَسوتِه مُتذرعين بصبرٍ شحيحٍ نلمُّه من ضِفافِ أيامِنا المُنحسِرة.. نتعثَّرُ فوقَ سكاكينِه الناتئةِ فنتألمُ، ثم لا نلبث أنْ ننسى، وننهض لنستقبلَ سكاكينَ أخرى.. وآه، اذكر وأنا صغيرٌ كان أبي يصحبني بينَ شواهدِ القبور. تنغرزُ قدماي في أرضٍ رمليةٍ هَشَّةٍ، يَرتجفُ قلبي، وانظرُ فأعجبُ، واسألُه: أكلُّ هذا العدد قد ماتَ من قَبل ؟! فلا يرد ، واسمعُه يُتمتمُ بخشوعٍ:

– (ألهاكم التكاثر حتى زرتُم المَقابر)... ومن بين الشواهد يرفع عينيه ويقول:" ها قد وصَلنا"... يحدثُ هذا في زيارةِ عيدِ رمضان مِن كلِّ عام.. نقفُ أمامَ شاهدةِ قبرٍ قديم، وأفاجأ بأبي يرتمي على حجارةِ الشاهِدةِ المَرميةِ وينفجرُ بالبكاءِ مثلَ امرأةٍ فقدت شيئاً لا يُعوَّض. وألمَحُ الدموعَ تتدحرجُ من عينيه، فتتساقطُ أرضاً، ويشربُها الرملُ الجاف وأعجب كيفَ أنَّ الرجالَ يبكون وهُم كما يُقال عنهم رجال؟. واسمعُ أبي يعتذرُ ويتضرَّع لأنَّه تأخَّرَ عليها كما لو كانت جالسةً تعاتبُه، فيقول:

– أتعبتني الأيامُ يا أمي. جنادلُ همومِها ثقيلةٌ تتراكمُ يوماً بعدَ آخر.

وحين ينتهي أتطلَّعُ في وجهِه مأخوذاً باحمرارِ عينيه وجحوظِهما... لا جرأةَ لي على التساؤل؛ وننسحب.

مَرضَ أبي مرَّةً، واشتدَّت عليه وطأةُ المرضِ.. جمعنا للوصيةِ، خمَّنتُ أنَّه سيطلبُ أنْ يكونَ قبرُه إلى جانبِها، لكنَّه قال:

– لا تدفنوني إلى جوارِها لأنَّها ستموتُ كَمداً عليَّ لو وَجَدَتني ميتاً.

2- وفـــاء

بكَتْ فأعياها البُكاء.. لَملمَت بقايا قوتِها واتَّكأت بيدين عجفاوين على أرضٍ رَمليّة ونهضت. ألقَت نظرةً أخيرةً على شاهدةِ القَبرِ واستدارت لِتطمئِنَّ على أعوادِ بخورٍ أشعلتها

للتوِّ بعد أنْ أطفأت أخرى أوقدتها عندَ مجيئِها قبلَ ساعتين مِن الوقتِ أو أكثر.. رأت أنَّ الماءَ الذي رشَّته غَب مرورِ حامل سبيل مازالَ يُرطِّب حِجارةَ القبرِ فساوَرتها دَفقةٌ من الرضا وشعرت أنّها أوفَت بنزرٍ مِمّا يترتّب عليها. كانت الشمسُ قد انكمشت خلفَ الشواهد العالية، المترامية بأعدادٍ لا تُحصى كسيرةً شاحبة. وَخزت قلبَها شفرةُ خوفٍ.. تَحسسّت مكامنَ جروحٍ ما زالت طريَّةً فاغرة(هي جراحُها التي لا تريد لها أنْ تندمل، ففيها بقايا سلوى، وذكرياتٍ خلّفها بعلُها ورَحل). قالت في سرّها وعيناها متصالبتان على امتدادِ القبر كأنَّ ثمّةَ جسداً يستلقي بهدوءٍ وينعمُ بإغفاءة:

_ معذرةً يا حبيبي، بودّي لو نَصبتُ خيمةً إلى جوارِك أسقيكَ الماءَ وأشمّمك طيبَ أريجِ البخور؛ لكنَّه الظلامُ والخوفُ والأشباح.

لملمت عباءتَها حولَ جسدِها؛ تحسسّت كيسَ قِماشٍ جاءت به مليئاً بخبزِ اللَّحمِ والريحان، وأفرغَته على زوّارِ القبورِ القريبةِ واندفعت بين الشواهدِ. لكنَّها جَفلَت مَسحوبةً بصوتِ استغاثةٍ يائِسةٍ أو نداءٍ مَخنوقٍ يقول: مَتى تعودين ؟.. فردَّدَت: إنَّها مُجرَّدُ أيامٍ.. نعم، نعم فلَن يطول غيابي.

3- مَراثي الحزن

بعدَ الأربعين كانت بينَ النُّسوةِ تلطمُ الخدودَ، وتُعفّرُ وجهَها برمالِ القبر.. تتقاطرُ من عينيها مراثيَ الحزن، وينضحُ من تشقّق شفتيها المتيبستين دمٌ وَردي [كانَ حَبيباً لها، رَسَمت صورةَ ملامِحِه بريشةِ احلامِها المأسورةِ بالأمنياتِ الخُضر وعلّقت اطارَها الذي صنعته مِن الغارِ واوراقِ الآسِ المُعطَّرةِ على جدارِ قلبِها الدفين، وركعت تحتَ فَيئها تستظلُّ بذكرياتِها البِكر، مُرتَشِفةً كأسَ هنائِها على رَواء... قضت في ذلك زمناً حسبَته يومَ أفاقت على أحزانِها وهي تحتشدُ على أبوابِ أيامِها الآتيةِ حُلماً شَفيفاً تهاوى كنجمٍ آفل]. رثَت لحالِها الأُخريات، وتشبَّثنَ بها يَمنعنَ فعلاً قد يَسلبُها حياتَها. قُلنَ وهُنَّ يتهامَسنَ أو يرفعنَ أصواتهنَّ يتقصدنَ اسماعَها: هكذا الوفاءِ [ومثلهنَّ فعلت امرأةٌ عَجوز قوَّست ظهرَها الهمومُ، ولَفحَ وجهَها هجيرُ الزمن.. بينهن كانت تبكي بصمتٍ، وتسفح دموعَها على أخاديد وجنتيها الضامرتين] .

عامٌ ونيّفٌ مرَّ.. ظلت هي تأتيه مزحومةً بالشوق، وفيةً للقاء. ترشُّ الماءَ وتنثرُ أزهارَ دفلى تجمَعُها من حدائق الطريق. تجلسُ متأسيةً لتناجيه؛ تبثّه لوعةَ الفراق، وتُفضي بما يحتشدُ في صدرِها من حرقةٍ وحنين... يَحدث مرّات أنْ تلتقي هي والعجوز، فتنهالُ من فمِها كلماتُ الرثاء والشجن. تقرأُ مُفرداتِ عَزاءٍ حُفرت على رخامةِ الشاهدةِ فتبكي لها المرأةُ المتهالكةُ، وتتهشَّمُ في جوفِها أسوارُ الصَّبرِ الهَرِمة... تصرفان وقتاً في المناجاةِ ثم تعودانِ مع أولِ خيطٍ للقلقِ والهواجسِ الخبيئةِ في نفسيهما.

لهثت الايامُ وتوارَت مثلَ شموسِ الأحلام. واضبَت العجوزُ على المجيء لكنَّها كانت تُفاجَأ عندَ كلِّ زيارةٍ بحِجارةِ القَبر يشوبُها الجَّفافُ؛ وبقايا ورودٍ تجاورُ القبرَ يابِسةً مُتكسِّرةً تُبعثرها ذيولُ الرياح.. داهمَها احساسٌ بالألمِ وتناهَبتها الهواجسُ؛ تمتمت مُتسائِلةً بإنهاكٍ: كَم من الأيامِ مرَّت ولم تأتِه؟.. هي ما عوَّدتهُ على ذلك، فما بالُها الآن؟ (طَفقَت تبحثُ عنها. تلفُّ الطرقات وتستطلعُ الوجوه. تبعثُ بعينيها إلى الابوابِ الموارَبةِ عَلَّ وَجهَها يطلُّ من نافذةِ الأمل.. تلقَّفت مداخلَ الأزّقة وطافت الأحياءَ حيّاً بعد حي، وانكفأت تُردد: آه لو أعرف أينَ تكون؟) غيرَ أنَّها تراجعت.. تَجمَّدَ سيلٌ من أسئلةٍ مَريرةٍ على شفتيها المتيبستين عندما تذكَّرت أنَّها لم تعُد تَعرفُ عن الفتاةِ شيئاً؛ وحتّى الاسم نسيته وصارَ عَصيّاً عليها تَذكُّره... يومَها جاءته تتعثَّرُ. ارتمَت أمامَ قبرِهِ تبكيهِ بحَسرةٍ وتنزفُ دموعَها، قائلةً بتوسِّلٍ مَرير:

– سامِحها يا ولدي، فقد طالَ الفِراق وخلا أفقُ عودتِك بينما آفاقٌ أخرى تزخرُ ببريقِ القدمين.

4- زيارة أخيرة

جاءت وفي عينيها بريقٌ آفل خَضَّلته الدموع بينما شفتاها تغشاهما زرقةٌ جامدة.. انحنت بين الشواهد المتزاحمة؛ ركَعت تُقبِّل غبارَ أيامِها الراكِد فانحسرَ الشّالُ الذي رَمته على ظهرِها، كاشفاً فعلَ الزمنِ المُر، يكرّسه تحدّبٌ في أعلى الظَّهرِ جَلياً، وتُعلنه غُضونٌ في مِرآتي كتفيها. وحين رفعت رأسَها ولحقها الجذعُ بدت كهيكلِ نخلةٍ مُتفَّحمةٍ.. مَرَّرت اصابعَها تمسحُ غباراً وطأ خدَّيها وجبهتِها فوجدت نفسَها تَمحو سنينَ بهجتِها ومسالكَ نشوتِها الدّامية. وإذْ تَطلَّعت ترمقُ القبر وجدت كفّاً مِن عِظامٍ صِفر وجِلداً أعجفَ مُتيبساً؛ بدا كما لو كانَ قد شقَّ الأرضَ للتو.. كفّاً منقبضاً أمسكت به؛ جَهِدت في فتحه... في

داخلِه وجدت لُفافةً من ورقِ زيتونٍ مُنكَمِشة. فضَّتها؛ لاحَ لها قلباً ذهبياً يبرقُ ألَقاً. وفي نقطةٍ خَضراء وسطَ القلب تفرَّست. اكتشفت ثَمّة حروفاً مَحفورة، جمعتها وقرأت(أُحبّكِ)..
لحظتها انكفأت وانطفأت وخمدت وهمدَ فيها كلُّ شيءٍ إلاّ من نقطةٍ شقَّت صدرَها وخرجت.. طافت حولَ القلبِ ثلاث مرّات قبلَ أنْ تهوي وتتَّحِدَ مع النقطةِ الخضراء.

غوايـــات

(1) غواية المازوت

تِر.. تِر .. تِر..

تُتَرتِرُ سيارةُ المازوت الحوضية؛ تتحركُ ببطءٍ شديد. تنفثُ دُخاناً فاحماً فتهربُ النساءُ المُهندمات يَخشينَ افسادَ مِكياجِ وجوههنَّ، لكنَّ الصِّبيةَ الصِّغار كانوا يستعذبونَ المَشهد الغريب. يلاحقونَها، يجعلون أيديَهم تتشبث بخلفيتها والدخانُ يَطفو فوقَهم ثم يهبطُ عندما يثقل. لا تثيرُهم ذرّاتُ الكاربون تندفعُ إلى رئاتِهم عبرَ شهيقٍ غائرٍ.. يكركرون!.. يكركرون لأنَّه تَسبَّبَ في حَجبِ الواحدَ عن الآخر... فتاةٌ بقميصٍ تفتا سمائي وتنّورةٍ نسيج ورديّة تبرَّمت : أُف... أُف.

شابٌّ يافعٌ ذو بدلةِ "بيجي" كَمشَ جبهتَه، أبدى ضَجراً... أخرجَ منديلاً من جيبِ بنطاله؛ كَمَّ أنفَه.

رجلٌ عجوزٌ يقتعدُ الرَّصيفِ أطلقَ حَسرةَ ألم.. حَسرةَ ذكرى... عادَ إلى صِباه؛ تذكّر الدُّخانَ يندفعُ كنديفِ صوفٍ أسود من عادِمِ ماكنةِ(الماطور)* وسط النهر وهو يقف قريباً حَمّالاً مُهمَّتُه نقلَ أكياسِ(الزهدي) من جَوف(الماطور) ** إلى(المِسنّاية)***. تذكَرَ كيفَ ضحِكَ جميعُ من وَقفوا ينتظرون الرُّسو لتسَلُم بضاعتِهم مُطالعينَ وَجهه دونَ أنْ يَعلمَ السَّبب؛ إلا حينما انحنى عندَ الجّرف يغرفُ بكفّيه حَفنةَ ماء.. ضَحِكَ لحظَتها... وها هو يَضحك لمرآى الصّبيةِ الذين ما أنْ أسرعت السيارةُ وخلَّفتهم حتى غرقوا في نوباتِ ضحكٍ مُتقطِّع، وكلٌّ واحدٍ يتأمَّل الآخرَ مُعيباً عليه سوادَ وجهِه الذي غيَّر سحنتهُ سخامُ المازوت الفاحم.

● الماطور : زورق متوسط الحجم لنقل البضائع بين المدن والقرى في مجرى النهر .

** الزهدي : أحد انواع التمور العراقية الوفيرة زهيدة السعر كثيرة المنتوج.

*** المسنّاية : مرسى نهري ترسو عنده الزوارق الكبيرة.

(2) غوايةُ المَطر

ثمالاتُها تُرخي عِنانَ الروحِ فيتفجّر اللاوعي بوحاً وانثيالات تترى... سَميرةً نُحسُّها الآن تتوهّج كنجمٍ ثاقب؛ وإسماعيل! كلّما تذكَّرنا إسماعيل يَغصُّ الصَّدرَ بانقباضٍ خانق ويعودُ المَطر زائرُنا الأثير/ المُنتَظَر مؤجِّجاً للجَّمرِ الكامنِ تحتَ رمادِ الأعماق. يعودُ ليُذكّرنا بإسماعيل: أشدُّنا نشاطاً/ أبرعُنا لعباً/ أتقبُنا ذكاءاً. حبيبُ المطر _ عاشقُ الندى... عيبُه أنّهُ ضئيلُ الجّسمِ، ضعيفُ العَظم، كثيراً ما يُسقِطُه التهابُ المفاصِلِ أيّاماً في دَوحةِ المرض.. بيدَ أنّه يعوّضها بأوقاتِ النَّقاهةِ والشفاء.

_ " أبو لايكا "... سمّوني " أبو لايكا ".

ويُخرِج من جيبِ ثوبِه الرَّثِّ صورةً لكلبةٍ شهباء (*) تمدُّ لساناً طويلاً تقعي وسطَ غرفةٍ مَعدنيةٍ _ فُضيّة المَظهر الخارجي(الغرفة تضمُّ تكويناتٍ مُجسَّمةً وهياكلَ مستديرة وشاشات زجاجية رَمادية مُتلاصِقة)... فوقَ كلِّ رُكنٍ قرأنا " cccp "... يَطوي اسماعيل الصورةَ؛ يَزجُّها في جَيبه، قائلاً بسخريةٍ: سأخترقُ الفضاءَ قبلَكم، يا متخلّفون. سأترُكُ الأرضَ بما تحوي وأُحلّقُ هناك.. هناك! انظروا، حيثُ الكواكب حُرّةٌ تجتازُ المَديات الفسيحة... هنالِك ترونني ... ها .. ها .. ها ؛ عندي صورةٌ أخرى!

_ أينها؟!!

_ هُنا! ... ويشير إلى جيبه.

نقتربُ منه فيهرَب. يروحُ يعدو: اتركوا ذلك لوقتٍ آخر.

زرناهُ مَرّةً، مُنسحِقاً يَضمّه فراشُ المرض/ مُمدّداً لا يقوى على النهوض. عَدوُنا تحتَ نثارِ مَطر اليومِ الفائت ولَّدَ إنهاكاً مُربكاً، والتهابَ مفاصلِ حاد.. لا قدرةَ له على الكلام.(حُمّى الروماتزم تُنهكُ قواه/ تَشلُّ لِسانه). مَدَّ يداً مُرتعشة يسحبُ من تحتِ وسادتِه صورةً، فإذا بها الصورةُ السابقةُ وقد قَطعَ جزءاً ووضعَ مَحلَّها صورةً له تحاذي لايكا.

_ ما هذه؟!!

صوتُه الواهن قال:

_ التي وعدتُ بعرضِها عليكم.

بينَ ضحكٍ ظاهرٍ وحزنٍ دفين سألناه:

_ وكيفَ ساورتكَ الفكرةُ ؟

ردَّ الصوتُ بوهنٍ أشد:

_ ألم أعِدُكم بأنّي سأخترقُ الفضاء.. ألم أكن أنا " أبو ....

_ لايكا... رددنا مُبتسمين.

جنونُ الحمّى اشتدّت في اليوم التالي.

في اليومِ التالي هطلَ المَطرُ غزيراً؛ غَمرَ الزُّقاق، والميازيبُ غدت ترمي مياهاً ضاجّةً... لم تكُن الساعاتُ حُبوراً لنا ومَرحاً ساعةَ افتقدنا إسماعيل. كان عبرَ لحظةٍ مُنفلتة غير محسوبةٍ قد صَعدَ وحيداً؛ تاركاً لنا صورتَه الأثيرة تحتَ وسادته، ضاحكاً تقفُ إلى جانبه " لا يكا "، تمدُّ لساناً طويلاً كأنَّها تسخرُ منّا نحنُ الذينَ شدّتنا الأرضُ لهيمنتِها.

بانقضاءِ الأعوام، والشبابُ يَطردُ عبثَ الطفولةِ وينحو صوبَ اعتدادِ النفس، عادت ذكرى إسماعيل تشغلنا!!!

وذا ليلةٍ، قد لا تصدّقون إذا قلنا رأيناه مِن على شاشاتِ التلفاز يَطأ بقدمهِ ترابَ كوكبِ القمر_ كان قد كبُرَ وأصبحَ يُقاربنا العمر_ ابتسمَ لنا من وراءِ الزجاجةِ الدائريةِ لبدلتِه البيضاء. فوجِئنا به يحملُ اسماً جَديداً "نيل آمسترونغ" ردَّدهُ المُذيعُ بفرحٍ غامر واندهاش لذيذ... صرخنا به مرتابين: إسماعيل ! كيفَ حدَث هذا؟ ولماذا لم تكُن لايكا مِعك؟!!.. وحتّى مركبتك بدلاً مِن أنْ نقرأ عليها "cccp " نراها تحمل أحرفَ " USA " !!

(*) لايكا : اسم الكلبة التي وضِعت بديلةً للإنسان في مركبة الفضاء الروسية كاختبار أولي للاكتشاف.

(3) غوايةُ الذُّباب

يَومذاك ، ونحنُ في غمارِ بَحرِ الطفولةِ الدفّاق فوجئنا بقدومِ سيارة "دودج" زرقاء تتوقّف أمامَ الزقاق وتستديرُ لتجعلَ مؤخَّرتَها المكشوفةَ باتجاهِ فمِه ؛ (ذلكم زقاقُنا العتيد يصحو وينامُ على هواءٍ دَبِقٍ وتِلالِ زنوخة تكيّفت لها حواسُ شَمّنا / حوَّلنا دربَه الترابي برغمِ ضيقه عالماً عامِراً للعبِ والمَراح ، وحلبةً أثيرة لتناسلِ الأخيُلة) .. ثمّةَ ذبابٌ هائلُ

العَدَدِ يَحومُ فوقَنا ، يُعلَق بأهدابنا وفتحاتِ مَناخيرنا ، وعلى جروحٍ طافحةٍ بالصَّديد ... وبلمحةٍ صارخةٍ هَدرَ مُحرّكٍ ثَقيلٍ آتٍ صَوتُه من جوفِ العَربةِ مُقتحِماً مَسامعنا .. لفتَ انتباهنا رجلٌ يرتدي بدلةً خضراءَ داكنةً بقطعتين . (عجوزٌ هذا الرجل ؛ شبيهٌ بعشيقِ "أيفا كاردنر" في فيلمها الذي شاهدناه في " سينما الشعب " قبل أيام) . يَجلسُ عندَ المُحرّك ؛ ما لبث أنْ ضاعَ بَغتةً خلفَ ضبابٍ أبيض كثيفٍ تفجَّر من فوّهة الجسدِ الحديدي مُكتسِحاً الفضاءَ حولَنا ، مُقتحماً البيوت / مالِئاً مفاصلَها المتداخلة . لم يَستثنِ الزوايا والجحور . سمعنا أمهاتنا يرحبنَ / يُظهرنَ فَرحاً . فكلُّ شيءٍ سيغدو نظيفاً . هذا آخرُ يومٍ في عُمر الذباب / آخرُ لحظةٍ من فوضى البعوض . ستمرضُ العظايا بالتأكيد وتؤولُ إلى الموت في ثقوبِها . سننامُ كما نشتهي / نأكلُ دونَ حَذر .

الغريب أنَّ كلامهنَّ كان صحيحاً وصادقاً . ففي اليوم التالي غابَ الذباب وتوارت رائحةُ الزَّنَخ ؛ حلَّ محلّها هواءٌ لم نألفه .. لكنَّ الغريبَ أيضاً ما حدثَ بعدَ يومين أو ثلاثة ؛ فقد دبَّ عبرَ أوصالِنا وسرى خمولٌ غامض .. ما عُدنا راغبين في اللعب ... تفرَّقنا / انكمشنا في بيوتنا لائذينَ بظلالِ الأشياءِ وعتمةِ الزوايا ، مَلولين / جَزعين ؛؛ حتّى جاءنا ذلك اليوم . يوم تبرعمت على محفّات هوائِه رطوبةٌ صاخبة أبصرنا خلالها حشودَ الذباب تتقدّم أرتالاً ... اذّاك استقبلتها _ نافرةً _ أهدابُنا التي غَدَت كسولةً ؛ وأيدينا التي أضحَت شُبهَ مَلساء ، وجراحُنا التي كادت أنْ تلتئم .

(3) غوايةُ أمّي

مِن شدّة الحزنِ بكَت جدّتي على غيابِ ولدِها / أبي . ظلّت تناجيهِ في خِلوتِها كأنّه أمامَها . حَسبناها أنا وأختي الصغرى جُنَّت ؛ تحبسُ نفسَها داخلَ غرفتِها مُقرفِصة على فراشِها . لا تأكل إلاّ لِماماً ، ولا تتحرّك إلاّ لقضاءِ حاجة .. إذا كلّمناها تطالعنا بعينين جامدتين ؛ لا نسمعُ لها ردّاً سوى سؤالِها المُتكرِّر : هلْ طرقَ أبوكمُ الباب ؟ (كانت طرقات أبي ليلاً تُرعبنا ، كنَّا نذهبُ إلى أسرّتنا ، ندسُّ أجسامَنا تحتَ الأغطيةِ مُتظاهرين بالنَّوم . يزدادُ هلعُنا عندما تداهمُ أنوفَنا الرائحةُ النافذةُ الغريبةُ التي سرعانَ ما تملأُ فَضاءَ الغرفة .. نسمعه يَشتُم أمّي / يركلُها ؛ يُسمِعُها تهديدات مُفزِعة .. يتناولُ ما تقدِّم إليه مِن طعام _ نَعجبُ لصمتِها _ ثم نسمعُ وَقعَ خطاه يبتعد فنعرِفُ أنّه دخلَ على جدّتي هناك يحادثُها بلطفٍ ؛ يمسحُ وجههُ بجبينها وينحني ليقبّلَ قدميها . تسحبهما استغفاراً ، تُمرِّرُ كفّها على رأسِه ، ونسمعَها تعاتبُه كما لو كانَ طِفلاً : لو كنتَ في فترةِ

صحوِك هكذا لكانَ رضائي عنكَ ليسَ له حدود .. نعجب ! .. حتّى أمّه لا ترضى عنه .. يحيّرُنا أمره ...) .

غَب ظهيرةِ كلِّ يومٍ يعودُ من عملِه . نعدو إليه _ أدركنا مزاجَه . يحتضننا / يقبّلنا . يُكلّمُ أمّي بودٍّ ؛ مُظهراً احتراماً نُفسّره خَوفاً ، موافقاً على ما تُمليه عليه .. كثيراً ما يتشاجر مع جَدّتي بفعلِ كلماتٍ تنفثُها أمّي في أذنه . يُهددّها بإرسالِها إلى ابنتِها / عَمّتي المتزوجة عندَ أُناسٍ يَسكنونَ أريافاً نائية .. جَدّتي تصمت / لا تَشأ الرد . تَتشاغلُ بِحلِّ فوطتِها السوداء التي تطوّق رأسَها وتعقدُها من جَديد ؛ دافعةً الشيبَ المُحتشد أكداساً عن وجهِها الضامر _ يبقى لسانُ أمّي هو المتسلّط _ ندهشُ لأنّ أبي يخاطبُ أمّه بهذه اللهجةِ القاسية والجفاءِ المُر ... " هَل طُرِقت الباب ؛ أسمعُ طَرقاً شبيهاً بطرقاتِ أبيكم ؟ " .. " يتراءى لكِ . لنْ يعودَ أبي ." .. " لا.. لا..! " يَنكمشُ وجهُها ؛ ومُرتعِشةً تُجيب : " لا تقولوا هذا .. سيعود ، سيعود " .. " انّه صريرٌ فقط ، يا جَدّتي ، انبعثَ بعدما أغلَقت أمّيَ البابَ خارجةً . " .. تسألُنا هَمساً : هل خرجَت ؟! (تَبرحُ أمّي المنزلَ / تَغيبُ لساعاتٍ ، ثم تعود مُحطّمةً .. شعرُها الذي مَشّطته وسَرَّحته وعقدته قبلَ مغادرتِها نراه أشعثَ . كَدماتٌ سودٌ مُنبثّة على زِنديها تحاولُ إخفاءَها بارتداءِ ثوبٍ غير الذي غادرَت به) .. وفي يومٍ تركت الدارَ ولم نَسمع _ اثرَ ساعات _ صريرَ البابِ دلالةَ عَودتِها .. لم تَقلق جدّتي ؛ ولم تُظهِر انفعالاتِ خوفِ ما حدث أو سَيحدث لها (كانت جدّتي تكتمُ حِقداً عليها لكنَّها لا تبوحُ لأبي _ حدسنا ذلك بفراستِنا) قالت انسوا أنَّ لَكم أمّاً ؛ فأبوكمُ سيعود ليعوّضَكم فَقدَها .

وذا يومٍ عادَ أبي .. بادىء الأمرِ كذّبنا عيونَنا . خلناه ماتَ ولن يعود .. فرحنا لمَقدمِه . حَنوناً أصبحَ مع جدّتي / حَنوناً معنا .. بيدَ أنَّ وجهَهُ شرعَ يتَغضّن ، وشعرَ رأسِه يشيب سريعاً بينما الرائحةُ الغريبةُ التي كانت تُمزّق أحلامَنا ليلاً صارت تَملأ فضاءات البيتِ وأجواءَ الغرفِ طوال الساعاتِ الأربع والعشرين وسطَ أسى جَدّتي ، وحسرتِها المتفجِّرة ، وعينيها الضئيلتين وهما تتابعانه بعزاءٍ ساحقٍ .. يائس .

(5) غوايةُ المرتفعات

أحزَنها أنْ تموتَ (كاثي)* متفوهةً باسمِ (هيثكلف) ؛ وآلمَها وقوفُ (هيث) خلفَ سياجِ الدار ينتظرُ لحظةَ الدخولِ عليها سرّاً ليُطعِم شفتيها آخرَ قبلةٍ في الحياة .. تخيَّلَت نفسَها على فراشِ المرضِ تحاور سَكَرات الموتِ ، ترجوها الاستطالةَ ريثما يَدخل عليها زيد ليؤدّي واجبَ الحُبِّ

المُفتَرَض ... وحين دخلَ (هيثكلف) ووجدَ كلَّ شيءٍ انتهى ، وأنَّ آخرَ ما فعلته كاثي هو امساكُها بمنديلِه يومَ رَماه إليها وغادرَ المرتفعات . تمنَّت هي الامساكَ برسائلَ زيد ، تنثرُ كلماتِها لتسيلَ على جسدِها ، مستحيلةً بحيرةٍ يحتويها سطحُها العابقُ .. ولحظةَ أمسَكَ (هيث) بجَسدِ (كاثي) البارِدِ وراح يَهزّه مُتضرِّعاً لخالقِها أنْ يسقيها النارَ السَّعيرَ جَفلت هي طاردةً هذه الصورة الرمادية ، مُدركةً أنَّه لم يكُن مَلاكاً كما شبَّهته كاثي ؛ بل شيطاناً مُتلبِّساً بهيئةِ انسانٍ ، مُتَّفِقةً مع آراءِ أفرادِ عائلةِ الفتاة يومَ نعتوه بهذا الاسم .. تمنَّت أنْ لا يفعل زيد ؛ ذلكَ أنَّها لم تكُن قد أكمَلت ما أفصحَ به (هيث) ؛ فلو استمرَّت مُتتبعةً الاسطرَ التالية لعرفَت أنّه حسِبَ بموتها قد ذهبت إلى فردوسِ الجنّة تاركةً إيّاه يقارع جَهنَم الدنيا ووحشتَها بينما الأولى بها انتظارُه حتى يغادرا مَعاً ... أغلقَت الكتابَ / رمته جانباً مُتذَمِّرةً ، لاعنةً الرجال ، ومتأسيّةً على وفاءِ النساء وطيبتهنَّ ... لم تتوقَّع رنينَ الهاتفِ الذي استباحَ الصَّمتَ المحيطَ وقطعَ عليها عبثَها بِخصلةٍ من شعرِها الجَّعِد ، الهابطة على خدّها المُحمَر ... عندما رفعت السمّاعةَ صارفة لحظاتِ تنصُّت خاطفة . ازدادَ احتقانُ الوجهِ / اتَّقَدت العينان .. سمِع المُنتظِر على الخطِّ البعيد كلماتٍ توصمه بالخيانةِ والزيفِ والاحتقار .. وسمِعته يسألُها : ماذا دهاكِ ؛ أنا زيد ؟! .. غير أنَّ زيداً لم يتلقَّ الرَّدَّ ؛ إذ امتلأ فضاءَ السمّاعة بأنفاسٍ متلاحقةٍ وخشخشةٍ مُربِكةٍ ؛ ثم صمتٍ كاتم .

• اشارة إلى مرتفعات واذرنك (WEATHERING HEIGHTS) وبطليها (كاثي) و(هيثكلف) للروائية الانكليزية أميلي برونتيه .

(6) غوايةُ الفلسفة

لخطوِها خفَّةُ ظَبيٍ آسر .. لحيائِها انكماشُ طِفلٍ خَجول ؛ أمّا ابتسامتُها فلم أجِد لها تشبيهاً . كيفَ أتدبّرُ الأمرَ . هكذا كان يبوح بحيرته كلّما جَلسنا نرتشفَ شايَ اللقاء . هو الضائعُ الذي دارت به حواري (السماوة) ودروبُها / هي الجنوبيةُ الموشّى وجهُها بخضيبِ طينِ الفرات . يحسِدُها نخيلُ البساتين ؛ يهيمُ بها متخلّياً عن سمرائِه التي " طرّته " مرّةً . فمن نصاعتِها استعارَ القمرُ بريقَه . ومن شفتيها ارتشفَت الشقائقُ حُمرَتها . لاذَ برهافتها النَّسيمُ واستمرأ ليلُ تموز عذوبتَها فاستطال . لماذا كلّما أبصرتُها _ هكذا كان يُحدّثني _ عادت " فيفيان لي " * تهفو عاشقةً ترتمي بأحضان " كلارك غيبل " فيحتويها هذا الشماليُّ

بذراعيه المتجبرتين !.. ويومَ وجدَته فيفيان قد ذهبَ مع الريحِ وجدتني "مُنى" تائِهاً مع العَبث (كانت سِهامُ العاشقاتِ المُصوَّبة باتِّجاه قلبي تتشظّى _ يا مُنى _ تتكسّر قبلَ نَيلِها مَحفّاته .. طريٌ هذا القلبُ يا مُعلّلتي . علّمته حملَ تميمةِ النقاءِ لكِ وحدِك .. آه) . الآن ذهبت مُنى _ هكذا كانَ يُكلّمني _ خَطفَها مَن لم يُفكِّر بها يوماً . تعضُّ إصبعَها حُزناً على فَقدي إيّاها .. أذكرُ أنَّها ناجت الليلَ والنخيلَ والأزقّةَ ، ومصاطبَ لقاءاتِنا السابقة .. ناجت قلبي كي ما ينفتح فيُدخِلُها ويوصدَ أبوابَه إلى الأبد ؛ (تلكَ الأيامِ كنتُ أتقمّص سلوكَ العبثيين الرافضين . تشغلني ماهيّةَ الوجودِ أشدّ بكثيرٍ من رياضِ العاطفة) . آ ، يا لغواية الفلسفةِ اللعينةِ ، جَرّتني من عُنقي صاغراً لبراريها القِفار .. ستندم قالتها لي في آخر تَضرُّعٍ _ هكذا سمعتُه يقول _ لكنْ هيهات ، فالضبابُ الذي ابتلعَ " غيبل " في نهايةِ المشوار لنْ ينجلِ . ولنْ تحظَ (لي) بطيفِ الذاهبِ مع الريح .

أمس لمحتُها / لَمحتني عند مفترقِ الكورنيش ؛ والفراتُ حييٌّ يستقبلُ مُريديه .. بعثَت لي برسالةٍ خاطفة : دمعتان كرَّستهما على تخومِ جفنيها الهابطين ، ثم استمرَّت ماشيةً ... استمرّت دون ما انتظار فحوى الرد .. ذلك أنَّها تعرِفُه مُسبقاً .. نعم تعرِفُه : فراقٌ دائم ؛ ولقاءٌ محال .. محال .

• (فيفيان لي) و(كلارك غيبل) بطلا الفيلم الامريكي " ذهب مع الريح GONE WITH THE WIND "

(7) غواية الدفلى

لأنَّ قلبي كأيِّ قلبٍ غادرَ رفيفَ الطفولةِ حَديثاً فقد رفعتُه مِن على العشبِ الطري وعلّقتُه على لافتةِ زقاقِنا الضيّق / الضئيل ، مُصممّاً على منحِه أولَ فتاةٍ ترفع عينيها وتبتسمُ لبراءتِه ... تنحّيتُ جانباً وانتظرت (كانت " لا خبر " 1 أغنيةً يترنّمُ بها العُشّاقُ المتزوجون المُثقلون بالأولاد مثلَما يردّدها العشّاقُ الخائبون .. أولئكَ يعودون بذكرياتِهم إلى سنواتِ صِباهم / وهؤلاءِ يحلمونَ بفرصةِ سماعِها من قِبل الحبيباتِ متجلمداتِ القلوب لعلّهنَّ يلُنَ فيوافينّهم بالوصال ..) . القلبُ على هفيفِ العشقِ يطالعُ الزقاقَ الفارغَ . أنا مُمسكُ الانفاسِ مُصيخُ السَّمعِ لهمسِ الخطوات .. حفيفُ عباءةٍ تمسُّ الأرضَ هو ما وصلَني ؛ وفورةُ غبارٍ تلاحقُ فتاةً مُتعثِّرةً هو ما أبصرَه القلبُ

.. انتظرنا !! أمامَنا توقّفت (ابتسام) بنتُ جارتِنا حَسيبة . رفَعت رأسَها ، ومن بين طيّات عباءتِها استلّت وردةَ دِفلى بيضاء . رَمتها إلى حيثُ قلبي فتلقَّفتها يدي .. ما زالت الوردةُ مُخبّأةً في كتابِ الجغرافية . كُنتُ يومَها في الثالث المتوسط ؛ وكانت أمّي تُعوّلُ على نجاحي الفائقِ بدرجات] تُثلِج الدواخل .. ولأنَّها لا تعرفُ القراءةَ والكتابةَ فقد ظلّت تَتَباهى أمامَ نساءِ الزقاق بأنَّي أتأبّطُ كتابي ليلَ نهار ... ولسوءِ حظِّ ابنةِ زقاقِنا ابتسام رسبتُ تلك السنةِ بدرجاتٍ مُخيّبة . ذلك أغضبَ أمّي وآلمَها . طفقت تبحثُ عَن سرّ الخيبةِ ، حتّى استدلّت بعدَ تحرٍّ إلى أنَّ قلبَ ابنِها لم يكُن معه ؛ وأنَّ الكتابَ الذي يحمله كان خالياً إلاّ مِن وردةٍ طرية ، رأيتُها تسحبُها من بينِ أوراقِ الكتابِ محاولةً سحقَها فاندفعتُ .. وفي لحظةٍ بارقةٍ انتشلتُها من تحتِ قدميها .

ذلكَ اليوم ابتعَدت ابتسام .. ابتعدت ولمْ تقترب منّي ... صارت كلَّما رأتني فرّت هاربةً / مندفعةً إلى أقربِ بابٍ مواربٍ فتدخلُه .

همسةٌ إلى ابتسام

ما زلتُ محتفظاً بوردةِ الدِّفلى لكنَّ قلبي _ يا لجحودِ الزمنِ _ باتَ يتطلّع إليها الآنَ ببرودٍ ، وأتطلّع أنا بانكسارٍ وألمٍ . فعلى وريقاتِها البيض جفّت أيامي الخوالي وبتُّ أحنُّ إليها ... ماذا أفعلُ يا ابتسام ! . إنَّني مُثقلٌ بالأولاد . أترنّم بـ " شلون أودعك يالحبيب" 2 مُداراةً لخيبتي فيما أسمعُ أبنائي يردّدونها بتعاطفٍ كَبير وانسجامٍ يفوقُ التخيّل .

لماذا تبتسمينَ عندما تلمحينَني هذه الأيامِ من بعيدٍ ، ولا تَهرَبين ؟!!

هوامش

========

1. " لا خبر " اغنية للمطرب العراقي فاضل عواد . ذاع صيتها أوائل السبعينات من القرن الماضي .
2. " شلون أودعك يالحبيب " أغنية كاظم الساهر . ذاع صيتها أوائل التسعينات من القرن نفسه .

توهُجّاتُ أطيافٍ نائية

(1) بهاءٌ أثيري

مثلَ خَدرٍ لذيذٍ شَعرَ الصَّبي بالطمأنينةِ تدبُّ في أوصالِه بينما شيءٌ كالخوفِ أو القلقِ شرعَ ينسل منها . أحسَّ بالظُّلمَةِ تَسقيهِ أَكسيرَ هدوءٍ عَذبٍ وأنَّ جلوسَه مُتَّكِئاً على جذعِ شَجَرةٍ كَبيرةٍ تَتوسَّطُ حديقةِ البيتِ المُعشِبة يَمدُّهُ بِسلامٍ دافِقٍ .. رفعَ رأسَه يتأمل نجوماً مُتلألئة؛ هناك في ديباجةِ العُتمَةِ فوجدَ نَفسه مُنجذِباً بسحرِ نَجمةٍ لا يدري لماذا خالَها تتوهَّج ببهاءٍ يَتباين عَن نثارِ نجومٍ أُخر؛ طافيةً في ذلك البحرِ الموغِل في اللاإنتهاء .. تجسَّدت له بقوامٍ نوراني فارع ، لامرأةٍ لها ملامحٌ طابت له وأمدّته برغبةِ مواصلةِ التطلّع إليها .. حاولَ القفزَ سعيّاً لإدراكِها فوجدَ نفسَه يَطير .. حملته سحابةُ حلمٍ ربيعيةٍ مؤطَّرةٍ بمحاقٍ فضّي بهي ؛ إلى هناك / إليها .. رمى وجهَه في خضيبِ شعرِها الضوئي .. تشمّمَ أنفاسَها الأثيريّة ، فتسلّلت إلى روحِه نشوةٌ مائيّة غامرة ؛ وانسابت إلى أذنيه هَمساتٌ مُنغَّمةٌ تُطلِقُها شفتاها المؤتلقتان... لا يدري لماذا هَتفَ بصوتِ النَّشوةِ الجارفة : " أُمّي.. أُمّي.".. انبثقَ في روحِه رَجاءٌ ودودٌ : " لماذا أنتِ نائيةً في هذا البعدِ المُريع ؟.. حَبّذا لو تَهبطين مَعي .."... لم يسمع لها جواباً ؛ بلْ اكتشفَها غارقةً في صَمتٍ مَهيب . بوغتَ بعدها مأخوذاً بَغَمامةِ حزنٍ توشِّح وجهَها الذي تَكدّرَ بشَكلٍ عَجيب .. سمِعها تطلقُ آهةً بحجمِ الاحتراقِ النَيزكي . آهةٌ استحالت نَشيجاً مَكتومَاً جعلته يَسقطُ في براثنِ شَقاءٍ دفين ... أسِفَ لأنّه سببَّ لها كلَّ هذا الألم ؛ وأحزنهُ ذلكَ البُكاء الذي فوجِيءَ به ينفجرُ كالبُركان ... ماجَت على مشارفِ حدقتيها المتأسيتين دموعٌ بلّوريةٌ. ما لبِثَت أنْ أخذت مَسارَها على الخدّين المتوهجّين . لحظتها رَفعَ يَداً كي توقِفَ نزيفِ الشَقاء المُنسَفِح عليهما فألفى–بانكسارٍ– أناملَهُ تمسحَ دُموعاً كانت تتدفَّقُ على خدَّيه الرَّقيقَين ؛ وصَوتاً غَليظاً آتٍ من شَبحِ امرأةٍ مُتَعجرِفةٍ تقفُ عَن بُعدٍ :

– لماذا تجلس هُنا ، يا ولد .. هل مَسَّتك الجنون ؟!

(2) اكتشاف

ما كانَ على الولدِ الصَّغيرِ التفكيرَ في الولوجِ إلى الغرفةِ المُغلقةِ ، المَعزولةِ في سطحِ الدَّارِ لولا الحاجة التي تلحُّ عليه للاختلاءِ بنفسه والبكاء دونَ أنْ يَسمعَه أحدٌ ؛ فالسطحُ ما عادَ مَكاناً يَكسبُ فيه حريتَه في تفجيرِ دموعِه وإطلاقِ حسراتِه الخبيئةِ في صدرِه .. لقد عانى الكثيرَ مِن أُمٍّ يَجهل لماذا أدمَنت الصُّراخَ بهِ ونهرِهِ أو صفعِه لأشياءٍ لم يفعلها (للأمومةِ طعمُ الحنانِ العَسَلي / لونُ الوردِ الليلكي/ همسُ الشِّفاهِ الوَدود ؛ تُرى لماذا هو في منأى عَن كلِّ هذا !!.. لماذا ؟ ...!) .. وما أنْ جَنَّ الليلُ وشرعَ الظلامُ والصَمتُ يُطبِقان حتّى تَركَ فراشَه وانسلَّ بخطواتٍ ساقته إلى السِّلَّم الذي وَطىء درجاته مُعتمِداً على ذاكرةٍ حَذِرة أوصلَته إلى حيثُ تترامى نجومٌ لاهثةٌ .. مَسَّت وجهَه أنسامٌ بليلةٌ ، باردةٌ استنشقَها بارتياحٍ ، طارداً أنفاساً حَبيسةٌ كانت تُضيّقُ عليه .. قطعَ مَساحةَ السطحِ نحو كوَّةٍ بطرفِ جدارِ الغرفةِ البعيد .. تحسّسَ صُندوقاً كان قد ثبّته تحتَها ؛ حتى إذا اعتلاه ، وجعلَ وَجهَه قبُالةَ استدارةِ الكوّة سحبَ شيئاً رَخواً يغلقها .. وبحذرٍ شديدٍ دفعَ جسَدَه مُتشبِّثاً بحافّات الجِدار ، هابِطاً إلى الداخلِ وسطَ حشدٍ من هواجسٍ فجّرت فيه رُعبين : رعبُ الظُّلمةِ المهيمنةِ حَوله ؛ ورُعبُ الذين صاروا تحتَه .. وطبقاً لِما حسِبَ أخرجَ شَمعةً من جيبِه فأطعمَ خيطَها ببصيصِ عودِ ثقاب أشعلَه مُرتجِفاً ؛ فأنارَ على نَحوٍ مُباغتٍ عالماً صغيراً احتواه سريعاً ... تملّى أشياءَ تراكمَ فوقَها غُبارٌ عتيق : سريرٌ خشبي / مرآةٌ واسعة / خزانةُ مَلابسَ كبيرةٌ مُغلقةٌ / بدلةٌ نسائيةٌ بيضاء سَقطَت مِن مِسمارِ تَعليقها ... وحين رفعَ الشمعةَ وصعدَ الضَّوءُ معها هجمت جيوشُ النّورِ على صورةٍ مُعلّقةٍ لامرأةٍ جَفلَ لمشاهدتِها وارتعدت أوصالُه .. رأى ملامحَه وتقاسيمَ وجهِه في قسماتِها ؛؛ غيرَ أنَّ شحوباً كان بعضٌ منه يلتصقُ برموشها النافرة ؛ وبعضٌ آخر يتخفّى في الحدقتين فيما توترٌ جَلي يُبعد شفتيها المتيبستين ... ذاهلاً سمّرَ نظراته / شغوفاً صار قلبُه يَخفِق .. اختلَجت شفتاه ومررّتا صوتاً مُرتَعِشاً . وبدون وعيٍ منه طفقَ يُتمتم : " أُمّي.. أُمّي ... " .. تَناثرَ الغبارُ مِن على الزجاجةِ ، وتفككَّ الإطارُ الخَشبيُّ الذي يحيُطُها .. وعلى غيرِ ما يَتوقّع ترجّلَت من الصورةِ امرأةٌ ، تمثّلت أمامَه بابتسامةٍ تَخفي شغفَ سنينَ ثقيلة .. أفرَدت ذراعيها ؛ وبلهفةٍ ضَمّته إلى صدرِها .. هكذا وللمرّة الأولى أحسَّ بذراعين رَؤمين يطوّقانه ؛ وأنفاسٍ حانيةٍ تُضمّخ

وجهه وتبث شيئاً ما كالرذاذِ في عينيه فترتخي أجفانُه ، ويروحُ غارقاً بإغفاءةٍ تأخذُه إلى عالمٍ بعيد ... بعيد .

في الصباحِ / على صراخٍ مُنبعِثٍ من جوفِ الدَّار لامرأةٍ كانَ يُناديها أمّي استيقظَ فزِعاً ، فرأى نَفسَه يحتضنُ صورةَ امرأةٍ دامعةِ العينين ؛ فاغرةِ الفَمِ ، خُيّلَ إليه أنّها كانت ومنذُ زمنٍ سَحيقٍ تَصرخُ بألمٍ فاجعٍ آآآآآآآآآآآآه ، فلم يسمعها – كما يبدو – أحَد .

(3) امرأةٌ باكية

لم يكُنْ ذلكَ النهار الربيعي للمرأةِ التي كانت تتركَ الزُّقاقَ وبيدِها صغيرتُها المُهندمةُ عاديّاً . والصَّبيُّ النَّحيفُ الذي أدهشته رؤيةَ المرأةِ تَخطو باكيةً ، مُنتحِبةً سيكتشفُ بعد قليلٍ أنَّها أُمّه ، وأنَّها لم تكُن قد شاهدته تلكَ اللحظة . فلو حدثَ ذلك لاندفعت إليه تَحتضنهُ ، وتَشمّه ، وتُقبّله . تَبكي طولَ الفراقِ ، نادبةً حظّاً نأى بها عن فلذَّةٍ غالية ... الطفلةُ الصغيرةُ تبيّنت الصَّبيَّ يطالعُها فلم تكترث له . لا تدري أنَّه أخوها . اكتفت بأنْ أدارت وجهَها مُستمرةً في سَعيها الحثيثِ مَع أمّها ... فكَّرَ الصَّبيُّ أنْ يَلحَقهما دونَ إدراكٍ لِسببٍ (لَعلَّ هاجساً خفيّاً انبثقَ فُجأةً في رأسِه ، وما أنفكّ يلحُّ عليه .) ، بَيدّ أنَّه تذكّر عُنفّ أبيهِ وغضبِه .. ارتسمت أمامَ عينيه العصا التي ستنهالُ على ظَهرِه لَسعاً وحِرقةً لتأخره ... سارَ باتجاهَ البيت ، وكانت المرأةُ تسيرُ باتِّجاهٍ مُعاكِس .. تَسيرُ دامعةَ العينين ... الصبَّي الذي سيكتشفُ أنَّها أمّه تساءلَ بألمٍ عَن سرِّ بكائِها في هذا اليوم الربيعي .

بِدخولهِ الزُّقاق واقترابِه من بيته شهدَ ضَجّةً غريبةً .. نُسوةٌ مُجتمعات ؛ وكلُّ واحدةٍ تُجاهرُ بعُنفِ القلبِ المُتحجّر والعاطفةِ الميتة ... لم يَعرفْ الصبيُّ لِحدِّ هذهِ اللحظة أنَّهُنَّ كُنَّ يَشُرنَ إلى أبيه .. أبصرَ صِبيةً تمورُ عيونُهم بالقلق والتأسّي عليه . وحينما صارَ على بعدِ خطواتٍ سِمعَ هَمساً يتردّد من عِدّة جهاتٍ :" ها هوَ قَد جاءَ ؛ لقد كانت تأمَل مُشاهدتهُ ..!!"

دخلَ البيتَ ففوجئ بأبيه غاضباً / مُمتقعاً . ترتعشُ السيجارةُ بين شفتيه : تتناثرُ أمامَه صورةٌ مُمزّقةٌ .. بأناملِه الصغيرةِ جمعَ الصَبيُّ أشلاءَها .. قرّبَها بَعضاً من بَعض ليكتشفَ شَخصَ أبيه مُنتصباً ؛ تَقفُ إلى جانبِه امرأةٌ بثوبٍ حريريٍّ أصفر .. المرأةُ تَحملُ طِفلاً رَضيعاً بين يَديها . رأى في الطِفلِ الرَّضيعِ شَيئاً من مَلامِحه . قال مُتَمتماً :" هذا أنا ، وهذا أنتَ – مُشيراً لأبيه –؛ وهذه ..." . وقبلَ أنْ يُكمِل هَبَّ خارِجاً كالمجنون .. سَلكَ

الدَّربَ الذي خَلّفته المرأةُ وراءَها واستقلّت سَيارةَ أُجرةٍ وهيَ لا تَزال باكيةً ، تتساءلُ بألَمٍ : " لماذا تَحرمُني مِن وَلدي ؛ لماذا أيُّها الظالمُ المُتَجبِّر ؟!!"

سوناتات

من ترانيم الحصار

(1) بطاقتان

أصواتُهم شَقَّت أستارَ الظَّهيرةِ وتَبعثرَت .. وصراخُهنَّ الحادُّ تَشظّى ليُفشي فُوضى المَكان وعدمَ انتظامِهنَّ في الطابور .. طابورهُم لا يعرفُ الاستقرارَ . وطابورُهنَّ كذلك . التزاحِمُ والتدافعُ يعطيان ثَغرةً لِمَن يأتي فيحشرُ جَسدَه ويَسرقُ حقّ واقفٍ آثرَ الانتظام ... وهو إذْ حَضرَ مُبَكِّراً ليتَّخذَ له مَكاناً قَريباً مِن الشّبّاك فقد تَمكَّنَ من تسليمِ بِطاقته التموينية إلى المُسجِّل القابِع عندَ جِدارِ غُرفةٍ مُكيَّفةٍ وانفلتَ مِن زَحمةِ الحَشدِ الذي كان يَضغَط عليه دونَ هوادةٍ .. خَطا نحو شريطِ فَيءِ جِدارِ البنايةِ الواطئِ كي يستظلَّ على أمَلِ تَسجيلِ بطاقتِه وختمِها .. أمّا هي وبجهدِها المُثابر ، وكَلبوةٍ تَجهَدُ في اقتناصِ طعامٍ لأشبالِها الجائعين فقد تمكَّنَت من دفعِ بطاقتِها للمسجِّلِ ، وتحرَّكَت ملولةً/ حزينةً/ جَزِعة ، تنشرُ غضبَها مُفرداتٍ مَبتورةٍ اجترحت لها مَكاناً في شريطِ الفيءِ قَريباً مِن الرَجلِ المُنتظِر ... دفعت أناملَها الصُّلبَةَ تحتَ عُصابةِ رأسِها السوداء لتمسحَ عَرقاً تدفَّقَ من بينِ شَعرِ رأسِها وسالَ نازِلاً عَبر رقبتِها .. وحين حانَت مِنها التفاتةٌ غيرَ مقصودةٍ سقَطَت أنظارُها على وَجهٍ بَدت مَلامحُه مألوفةً لَديها . تَفرَّست فيه فاكتشفَته يُطيل النَّظرَ إليها .. قَفزَ قلبُها مثلَ عصفورٍ باغتَتهُ صَيحةٌ مُدويّةٌ فهيَّجَ في النفسِ أَشجاناً كانت مَطمورةً تحتَ أثقالِ السنين وتراكماتِ القَهر ، وجَبروتِ الشَّقاء ... تأمَلَها الرَّجلُ .. تأملَها بانتباهٍ ... وقبلَ أنْ تنفلت الكلماتُ مِن فَمهِ بادرته بالسؤال :

- أَأنتَ صالـ..... ؟
- نَعم .. ولكن آ ؛ ما الذي فعلَ بكِ هكذا ؟! .. أَنتِ كَبُرتِ كثيراً !

لم تُجبهُ نَطقاً ، بل تَركت عَينيها تبوحان بالكلام .

بتوالي الوقتِ صارَت تُحدّثُه ؛ وصارَ يُحدّثُها .. تناثرت شظايا الذكرياتِ وتبعثرت . تَسلَّم النَّاسُ بطاقاتِهم وغادروا .. وشيئاً فشيئاً راحَ المكانُ يَفرغ ، والأصواتُ تَخفت ، والشَّمسُ تسخنُ وتَتلظّى ... تَحدَّثا عن الاولاد والبنات وشؤون الحياةِ والحظِّ الذي لَم يجمعْهُما ،

وعِنادِ الأبِ ، ورَغبةِ الأخوةِ ، و....و.... ولم يُخرجْهُما مِن كلِّ ذلكَ إلا صوتُ الموظَّفِ المُسَجِّل يَهتفُ باسمين لم يَتسلَّما بطاقتيهما بَعد .

(2) طفلان

رَكَنت طفليها الصَّغيرين بَعيداً عَن الزِّحامِ ولَهيبِ الشَّمسِ المُنهَمرِ باضطرادٍ ودعتهما إلى عدمِ النهوضِ مِن مكانِهما ، ثم اندفَعت بين النسوة اللائي شرَعنَ يَنتظِمن صَفاً واحداً اثرَ سَماعَهِنَّ صَريرَ انفتاحِ شُبّاكِ التَّسجيل ... جَهِدت في بَسطِ وَرقتين مَطويتين ومَدعوكتين يُبلِّلهما عَرقٌ رَشَحَ مِن يدِها التي كَلّت من الامساكِ بِهما .. بَلَّلت بِطرفِ لِسانِها ذَيلَ الطابِع الذي لم يَكُن مُلتصقاً بإحكامٍ على الورقةِ وتَهجَّت كلماتِ استرحامٍ دوَّنَها كاتبُ العرائضِ لها قبلَ ثلاثةِ أيامٍ [ثلاثةٌ أيامٍ وهي تُبكِّرُ في المجيءِ إلى هُنا ... تَتدافعُ ، وتَتزاحمُ ، وتتنازعُ سَعياً للوصولِ إلى الشُبّاكِ لكنَّها ومثلُ كلِّ مَرةٍ تَعود إلى بيتِها مُتقهقرة/ خائبة: محبطة] .. انتظم الطابور بعدما أدركت الواقفات ضياع الفرصة إذا لم يفعلنَ ذلك .

بَعدَ حين بدأ العدُّ ، وبَدأ التَّسجيلُ ؛ وبدأت تكتشفُ أنَّ مِن يَقِفنَ أمامَها هُنَّ مِن اللواتي تكرَّرَ مَجيئُهنَّ كلَّ يوم [.. وكلُّ يومٍ يَذهبنَ بوجوهٍ مُرتوية/ ضاحكةٍ فَعجِبت واندهَشت وتساءَلت في سِرِّها لماذا؟! .. لماذا؟! .. فلَم يشفعْ لها جوابٌ يُرضي فضولَها ، ويُفَتِّت جِدارَ الغموضِ لديها] . هَمسَ الذي بداخلِها : لا عَليك ، فأنتِ في الصَّفِ ، والتَسجيل يَسيرُ أُصوليّاً ، ما هي إلّا لحظات . اطمأنَّ قلبُها عندما شاهدَت أمامَها ثلاثَ نسوةٍ فقط ... انتَهت الأولى سَريعاً ، وتقدَّمت التي بعدَها . ثم وقَفت التي تَليها عِندَ الشِّبّاك . رأتها تُسلِّم بِطاقتَها ، وسمِعتها تُحيّي الموظَّفَ المُسجِّل وهوَ يَردُّ بودٍّ ؛ وبودٍّ يَدخلُ مَعها في حَديثٍ اختتمه بدعوتِها للحُضورِ في اليومِ التالي للاستلامِ : نعم ، أجابتهُ وانزاحت ، فاندفَعت هِي .. دفَعت إليه بعريضتها المُرفَقَة بالبطاقةِ التموينية.. حَدّقَ في وجهِها طويلاً قبلَ أنْ يُطالعَ القائمةَ بين يَديه .. حتى إذا رَفَعَ رأسَه سَمعته يُجيب : انتهى التَّسجيل ؛ تعالي غَداً .. " ولماذا غداً ؟ " ، صَرَخَت في سرِّها مُرتَعبةً (آ.. ومِن جَديدٍ سَتأتي !! ومِن جَديدٍ سَتأتين !!) ... تَضرَّعت إليه / تَوسَّلَت فلم تحظَ بِغيرِ الصَّمت وغُضون الوجه الذي تَجَهَم والكَفِّ التي أَغلَقت الشُّبّاك .. هؤلاءِ جَميعاً أطفأوا في عينيها ذُبالةَ أمَلٍ كانت

تمنَحُها عزاءَ البقاءِ والاستمرارِ ... أحسَّت بشيءٍ كالزجاجِ يَتهشَّم في صدرِها ، وسَمِعت كما لو كانت خارجةً من كابوسٍ مُدوٍّمٍ رَجلاً ينادي : لِمَن هذين الطفلين الضائعين ؟! ..

(3) مصوغتان

أمسكَت بآخرِ مَصوغةٍ ذهبيةٍ تملكُها ، وألقتْ آخرَ نَظرةٍ عليها قبلَ أنْ تَضعَها داخلَ حافظةِ نقودِها ، فقد قرَّرَت هذا اليوم بيعَها حتّى تُوفّر قوتاً لأيامِها القليلةِ القادمة ... وقبلَ أنْ تقصد سوقَ الصَّاغةِ عَرَّجت على مركزِ توزيعِ المُساعداتِ الغذائيةِ علّها تَحظى بحصّة ، إذْ اخبرَتها جارةٌ لها بيسرِ الحصولِ على ذلك .. وهناكَ سَعُدت لرؤيةِ العَدَد القليل من المراجعين والمراجعات ، لكنها كُبِحت عندما وجدَت شُبّاكَ التسجيلِ ما زالَ موصَداً . إذاً عليها الانتظارُ ريثما يجيءُ الموظَّفُ ويبتدئ بتأشيرِ البطاقات .

معَ لحظاتِ الانتظارِ الزاحفِ ببطءٍ مُمِلٍّ ومُروِّعٍ يصلُ حدَّ استلابِ الانفاسِ طفَقت أعدادُ الناس تزدادُ وتتنامى حتى غدَت غفيرةً ، هائلةً .. جموعٌ أبصرتهُم يسبحونَ وسطَ مُحيطٍ من اللغطِ والضَّجَرِ ؛ ثم بلَحظةٍ مُتَفجِّرة شاعَ الصَّمتُ واستطالَ ، وانجلى بانفلاقِ الحشودِ نصفين .. كانت العيونُ تتصالبُ وتسقطُ على رَجلٍ اسبَغت عليه بدلتُه الحديثةُ الطَّرازِ وشعرُهُ المُصفَّفُ اللامِعُ ، وتقطيبةُ حاجبيه الكثّين وقاراً واتِّزاناً ؛ وعرِفَت مِمَّن سألَتهم أنَّه الموظَّف المسجِّل .

فُتِحَ الشُّبّاك فتدافَعَت الأجسادُ وتراصَّت ؛ ومِن جَديد عادَ اللغطُ ولكنْ بهياجٍ أشَد وجَدت فيه نفسَها تنضغطُ وتَنحشِرُ بينَ جموعِ نُسوةٍ ورِجالٍ وصِبيةٍ زاعقين ؛ وفوجِئَت بالضَّغطِ يتفاقمُ فامتقعُ وجهُها وجَفَّت شفتاها ، وأطلقَ فمُها صيحةَ رَجاءٍ واستغاثةٍ للخروجِ والتَّخلّي عَمّا جاءَت لأجلِه ... سِحبتها يَدٌ ، ودفعتها يَدٌ .. سمِعت مَن يَشتُمُها ، وسمعَت مَن يَتأسّى عليها .. وبِقدرةٍ فائقةٍ سَحِبت جَسدَها المعروقَ ، المُتَفكِكَ فانقذَفت مُتهشّمةً خاويةً إلى الخارج .. ولكي تَمسحَ عَرقاً نزَّ على وجهِها ورقبتِها مَدَّت كَفَّها تُخرِجُ مِنديلاً وضعته مَع حافظةِ نقودِها فتصَلَّبت بَغتةً ، وشَحِبَ وجهُها وهي تَتحسَّس جَيباً خالياً إلّا مِن خِرقةٍ بَليلةٍ ، بالية .

في وعاءِ الليل

مِن ترانيمِ الحِصار

أفاقَت على وَخزةٍ في القَلبِ فألفَت صغيرَها يَئنُّ بِخفوت ... عِظامُ وجهِه البارزةِ تفضحُ سُرَّ الجوعِ والمَرضِ المُتفشّيين في أوصالِه .. الشَّفتان يابستان/ مُتقشّرتان .. العينانُ في المِحجرين العميقين تُحدِّقان بذهول ... سنواتُه الثلاث لا تُسعفانه بإعلانِ الشكوى . قلبُها المُحطَّم يَبكي كَمَداً : ماذا أفعلُ يا نَفَسي المقبوض ؛ يا وَتَر الرّوحِ المَقطوع .. كلُّ شيءٍ بِعتُه كي ما تبقى لي .. بَقي أنْ ابيعَ نفسي !! ... يَبتسمُ الوجهُ الذابلُ بِبراءةٍ شاحبةٍ ، غائمةٍ . تَتكرَّسُ في زاويتي عينيه حبَّتانِ مِن دمعٍ قبضتا قلبَها ، وأجَّجتا ناراً لاهبةً سَرت حَثيثاً خَلالَ عروقِها ... لا قِدرة له على الكلام ... هي تُدرِكُ ذلك .

نهضت تَبحثُ في زوايا قَناني الدواءِ الفارغةِ المركونةِ عندَ رأسِه : لا شيء .. لا شيء !... اندفعت تاركةً الغرفة ... في ظُلمةِ الحوش بكَت بُكاءً مُرّاً ، طَويلاً ومَكتوماً خِشية أنْ يسمعها ... رفعت رأسَها باتجاهِ السَماء تتَشفَّعُ / ترجو / تَستنجِدُ / تشهقُ / تسترحمُ / تلوذُ / تلتمسُ / تتضرعُ / تجثو على ركبتيها / " تَمعش" شَعرَ رأسِها / تَخدّش خدّيها ، ثُم تَنهضُ مَكدودةً ، لائبةً . تَقطعُ مُستطيلَ الحَوشِ المُعتم .. لا تعرفُ ماذا تَفعَل .. تَخشى الدخولَ عليه .. لا تريد أنْ تُضيفَ لألمِهِ ألماً .. تعودُ ترفعُ رأسَها : يا إلهي أنتَ القو ..... فتتجلمَد ! .. تتصالبُ عيناها بنيزكٍ يَمرقُ مُحترِقاً ثم يذوبُ مُتوارياً خَيطاً رَمادياً أحسَّتهُ يلتفُّ حولَ عنقِها مُضيّقاً عليها أنفاسَها .. تَنهار : ولدي ... ولـ ..دي ... ولـ ..... في الغرفةِ / وسطَ الصَّمتِ المُحيق / بِجانبِ قَناني الدَّواءِ الفارغةِ رسمَ الوجهُ الوديعُ آخرَ ابتسامةٍ ، وَداعاً للمرأةِ التي لا يَدري أنَّه سَيجدها قَد سبقَتهُ إلى هناك .

تنّور الحياة .. تنانير الأسى

من ترانيم الحصار

رَمت أمُّ صابر ليفةَ الخُبزِ جانباً بعدما ألصقت آخرَ رَغيفٍ في جوفِ التنّور واستدارت تاركةً ابنتها الصَّبيّة تلاحقُ نُضوجَ الأرغِفةِ وتَحرَّكت نحوَ الحوضِ الاسمنتي المُرتكن في زاويةِ الحَوشِ تَتَحسَّس نَوبةً شديدةً / مؤلمة مِن التَّجشؤ .. أحنَت رأسَها وبَصَقَت في قَعرِ الحَوضِ الذي تلقَّفَ سائلاً جَحظَت عيناها لمشاهدته .. آآ .. إنَّه أشَدُ احمراراً هذه المَرَّة .. ألوفٌ مِن المَباضِعِ راحت تَنزلُ فَتكاً وتَجريحاً في جانبي صدرِها . في حين ضيَّقَت على أنفاسِها أيادٍ قَويةٌ / مُتَجبِرةٌ .. " أمُّ صابر ! ما بالِك ؟.. ما الذي دَهاك ؟!.. أنتِ ما زلتِ في رَيعانِ العُمرِ "... " هُنا / هُنا " تُجاهدُ أمُّ صابر لرفعِ يدِها .. هُنا ، مُشيرةً إلى صدرِها الضَّامر ، المُهشَّم ،، تَخور .. لكنَّها تَمالَكت اتِّزانَها بعدما رَطَّبت وجهَها بنَثيثِ ماءٍ أحدثته بأناملِها المُرتَعِشة .. ارتمت ذاويةً عِندَ الجِّدارِ بمواجهةِ ابنتِها ... عندما نَظرَت إلى الصَّبيَّةِ المُنشغِلة بإخراجِ الرَّغيفِ الناضجِ هالَها المَشهدُ وَروَّعَها ... خالت فوَّهةَ التنَّورِ الفاغرةِ ستلتهمُها بلَمحةٍ .. همَّت تَبغي تحذيرَها بَيدَ أنَّها عَجزت ؛ فقد أنهكتَها النَّوبةُ القاسيَّةُ ، ورمتها دونما حِراك . تذكّرت أنَّها ابتدأت والصَّبيّة مِنذُ الصباح ؛ وها هو النَّهارُ يَنتصفُ .. كما تذكَّرت عوائلَ حَضَرت واستلمت حِصَّتها مِن الأرغِفةِ ، وأنَّ عوائلَ أخرى سَتطرقُ البابَ بعدَ قليل .. وتذكَّرت أنَّ النوبات شرعت تداهمُها بازديادٍ هذه الأيام ، مُستَلِبةً مِن قوّتها وحيويتها الكثير / الكثير ... أيامٌ هاربةٌ من ذاكرتِها المُتعَبة عادت تترى . زوجٌ ما زالَ حيّاً وشجرةٌ نَضِرةٌ هي بكاملِ ألقِها وزهوِها ؛ لهما صغارٌ يَقطعون غرفَ البيت وساحتَه نَزَقاً وحُبوراً .. حياةٌ وديعةٌ/هانئةٌ : لا قلق / لا حزن/ لا هَواجس/ لا خِصام/ !! لا.. لا.. آآآآ

.. كفٌّ مِن الضَّبابِ شوَّهت لديها مَنظرَ ابنتِها ، والتنّور المُنتصب ، ومَعالم البيت الشاخصة وراءهما ... تلكَ الكفُّ انتزعتها من وجودِها الحي عُنوةً ، مُلقيةً بها في عالمٍ فقدت فيه السيطرةَ على أطرافِها فخارت قواها ، وانعقدَ لسانَها / خذلَها في أحرجِ وأحوجِ لحظةٍ فلم يُسعفها بكلمةٍ تطلبُ بها النجدة .

بعد حين كانَ البابُ يُطرق والبنتُ تُخرِجُ الرَّغيفَ ، وأمٌّ صابر تتكئُ على الجِدار .. والبابُ يُطرَق والبنتُ تخرِج الرَّغيفَ ، وأمٌّ صابر تتكئُ على الجِدار .. والبابُ يُطرقُ . والبنتُ تقولُ : افتحي البابَ يا أمَّي فالخبزُ سيحترقُ إذا تركتِه في التنَّور .. والبابُ يُطرقُ وأمَّ صابر تتكئُ على الجِدار .. تتكئُ بعينين مُغمضَتين ، وفمٍ مَفغورٍ .. مَفغورٍ جِداً .

أُمـــَّـهات

1. .....

بتلكَ العينين الكَليلتين/الدامعتين ؛ وذلكَ الوجه المُستَباح بالغضونِ شرعت تستطلعُ موجودات البيت فوجدت كلَّ شيءٍ ما زال ماثلاً بسكونيته وصمتِه ، وأبوابَ الغُرفِ موصدةً تَحكي سِفرَ القطيعةِ وحكاياتِ البُعدِ المرير [آ.. لقد تبدَّدوا واحداً تلوَ الآخر .. أوصدوا وراءَهم الأبوابَ وغابوا مُمتطينَ صَهوة الجَّفاء ؛ مُتدرِّعين بالضاحكاتِ مِن الايام .. شاكر وكريم وأحمد ، (ولوليت / بدفو ناموا على صدري ، ولوليت / جِفوني بعُمُر ، ها ، حسرة ، ولوليت / قضيت أيام دنيايَ بولو ليت / ولا مِن واحدٍ يسأل عليَّ] .. ترقرقت دمعتان مُتعبتان تشبَّثتا في الحَدقتين اللتين ابيضَّ سوادَهما ، وتفجَّرت من كهوفِ الصَّدر شَهقةٌ تبِعها نشيجٌ جهِدت في خنقه واغلاقِ مساربِه ، مُحاولةً التماسك فتبيَّنت نفسَها عاجزةً/خاوية .. آ.. ما عادت متماسكةً / جَلِدةً .. باتت تنسَحِبُ فاقدةً زمامَ أمرِها ... كثيراً ما بكَت ؛ صارَ البكاءُ سلوى لها ومفردات عِتابٍ للساكِنة أطيافُهم بحجراتِ ذاكرتها المُهشَّمة [تراهم يعودون : مِن عَطفاتِ الدروبِ/ مِن مَدارسِهم/من لَعِبهم .. تتملّى قفزاتِهم داخلَ الدار .. تسمعُ بكاءَهم ومناداتَهم المُتكرَّرة : أمّي .. أمّي ..! . بعدَ رحيلِ أبيهم المُبكِّر احتضنتهم بين جوانحِها .... أهدَرت سِني نشوتِها ، وهشَّمت شَجرةَ زهوِها الفارِعة لأجلِهم كي ما يشبّوا وينهضوا غير مُتحسَّسين لفراغِ الأبِ حتى صارَ لكلٍّ مِنهم عَملٌ ، وصارَ يُشارُ لَهم بأصابع التَّبجيل ، ويفاهُ عَنهم بحلوِ الكَلام والإطراء ، وصارت العيونُ تلتهمُهم شَوقاً واحتضاناً] . وقرَّرت الآنَ كَسرَ صَمت الأشياءِ فاندفعت تُشرع الأبواب والنوافذ على سعتِها مُتخيلةً غُرف البيت وقد عادت إليها موجوداتها التي بُليَّت أو التي رُميّت أو تلكَ التي غيَّبتها الأعوام .. رشَّت أرضيةَ الحَوش بالماء وعلَّقت أعوادَ البُخور على الجدران ، ثم تلفَّعت برداءِ الرغبةِ في التذُّكر مُكتحلةً بألقِ النَّهارِ وبريقِه ؛ لكنَّها أحسَّت بعدَ حين بعُقمِ ما فعلَت ، إذْ طفقَ الظلامُ يتسلَّل إلى الغرفِ المُتلاصقة غُرفةً بعد أخرى ، والأبوابُ توصَد مِن جَديد ، والماءُ يجفُّ ولَمْ تَرَ أثراً له .. لحظتها طأطأت رأسَها مُغمضةً عينيها

المُنكمشتين ، مُجهِشَةً ببكاءٍ قاهرٍ ؛ متسائلةً بِعَزاءٍ : لماذا كلُّ هذا الحيف ، يا ربّي ؟!! .. لماذا ؟!! ... لماذا ؟!!

2. .....

الذي حدَّثني بعد أُسبوع من دفنِها ، قال : كانت تكلّمني وخيطان مائيان مِن حَدقتين مُتعبتين يتعثَّران على أخاديد وجنتيها المتغضنتين ثم تصمت في اطراقةٍ طويلةٍ حابسةً أنفاسَها حتى تبدو كأنَّها تأخذُ شَكلَ المومياءِ المَنسيَّة فينتشلُها صوتي الذي أُحاول جعلَه أكثرَ حميمية : تماسكي يا حاجّة ، تلك هي سُنّة الحياة .. [فتعودُ تسترسلُ بشَجنٍ : أعرفُ يا ولدي ، ولكنّي أمٌّ (يا لصبرِ الامهات!!) لا أنكرُ عليك كان يأتيني كطفلٍ حَنون ، ينثرُ على مَسمعي شوقَ الايام وحديثاً عن قسوةِ الزمن .. يُكثِرُ الشَّكوى من تلك الجاحِدةِ الغيور/ امرأته . يُثقِلُني بلومِه وتعنيفِه : أنتِ التي كَبَّلتِني بِسلاسلِ لسانِها السَّليط ، أثقلتِني بكيدِها الذي كالجَّبَل .. خابت مَعها كلُّ أفعالي ، وتاهت دُروبي ، وأُحبِطَت مُحاولاتي لتطويعِها .. لقد تَنكَّرت لكِ ، يا أمي .. أتذكرين مَن تكون هي .. أتذكرين ؟].. ويأخذُ مَجرى الخيطين تَدفّقاً أشد فيتوارى بقايا البَريقِ ويروحُ الرأسُ المُحتشِد بالشيبِ في اطرافِه قبلَ أنْ ترفعهُ مُحدِّقةً في وجهي لينفرجَ فمُها المَزمومُ ويفضحُ الزَّمنُ زرقَةَ شَفتينِ ضامرتين . عادَت بعدَها تُحدِّثُني بألمٍ : أرَدتُها زوجةً مُطواعةً ، هي اليتيمةُ المُنقطعةُ التي انتشلتَها من براثنِ الفُقرِ والقَهرِ ، وأردتُه وَلداً سعيداً هو الذي أبعدتُه عَن مُنكراتِ الدنيا ودروبِ الحياةِ الخادعةِ لكنَّها كانت كالعقربِ تَلدغُ ، كما يقولون وتَخفي رأسَها ؛ حتى جاءني يوماً (يا لذلك اليوم الذي هدَّمَ جِداراً واسعاً من صبرِها ، وأحالَها حُطاماً) ليرمي سِهامَ جُعبَته كلَّها مُصيبةً ، نافذةً تُمزّق شغافَ قَلبي ، قائلاً : سأنتقلُ لبيتٍ آخر استأجرتُه بسعرٍ زَهيد .. وبيتُكَ سألته بمرارةٍ .. فأجابتني هي / المنتصبةُ وراءَه فارشةً أشرعةَ الشماتةِ ، يكشفُها وجهُها المُحتقِن : لم يَعُد يأوينا .. سيكونُ لنا أولادٌ لا يَسعهم هذا القبر .

منذ ذلك اليوم وهي تلوذُ بالصمت ... ويوم دلّني صديقٌ على بيتِها لاستئجارِ غرفةٍ عندها نزلتُ عليها كما ينزلُ الغيثُ على أرضٍ قَفرٍ .. لقد أعادَ سَكني مَعها طراوةَ الحياة بعد جَفافِها ، ولكنْ لأيامٍ .. نَعَم لأيامٍ فقط ؛ عادت بعدها لوحدتِها وصمتِها ، وكثيراً ما كنتُ أجدها جالسةً مُقرفِصةً داخلَ غرفتِها . تَغلقُ البابَ بعد عودتي فتعتكفُ .. لا أسمعُ لها صوتاً سوى أنينٍ مُتقَطِّعٍ يَتناهى إليَّ زمنَ الهَزيعِ الأخير؛ راحَ بعدَها يزدادُ ويطولُ ليلةً تلو أخرى فاضطرَّني مَرّةً أنْ أنهَضَ لأطرقَ البابَ استفساراً عن حالتِها فلَم تَفتحه ، ولم تُجِب ، بَل سمعتُها تتنحنحُ دلالةَ بقائِها حيّةً

..... تَكرَّرَ ذلك لعديد الأيام ؛ وفي ليلةٍ عاصفةٍ/مَطيرة ، لا أدري لماذا خِلتُها ماتَت فهرعتُ .. فتحتُ بابَ غرفتِها عُنوةً ودخلتُ .. رأيتُها مُنطرحةً على فراشِها . يَستقيمُ عند رأسِها قدحُ ماءٍ على وشكِ الانتهاء .. تفرَّسَت بي ، ثم كَلَّمتني بِصوتٍ واهنٍ :

– منذُ شهرٍ ولمْ يأتني . لا بدَّ أنَّ الشرّيرةَ الجاحِدةَ أنستهُ إياي .

مُدارياً هتفتُ :

– اطمَئنّي ، سأذهبُ لآتيكَ به .

خَرجتُ مُندفِعاً ، وعلى وميضِ الرَّعدِ لتلكَ الليلةِ الهَوجاءِ اتَّخذتُ طريقي إليه ... جاءَ مَعي مُنقبِضاً، حَزيناً .. دَخلَ مُنتحِباً : أمّي .. أمّي ... ارتمى على يدِها يُقبّلُها ويَنثرُ عندَ قَدميها مُفرداتِ النَّدَمِ والغُفران ؛ ولكنَّها كانت .....

.....3

"– قولي لَهم يا زينب.. قولي لَهم أنْ لا يَطرقوا بابيَ بعدَ اليوم فلَنْ يجدوا ما يَستحقُّ سَرقَته .".. قالت ذلك ، وأطبَقَت أجفانَها المُحتقنةَ فانبسطت غُضونُ الوَجهِ الذابلِ للحظةٍ وارتَخت شفتاها الضامرتان بينما راحَت يدُها التي بين كفَّيَ تَتَحررُ مِن رِبقةِ نَشنّجٍ وارتعاشٍ كانا يَستحوذانِ على اتزانِها .. مَسحتُ كفَّها بهدوءٍ، مُحاولةً تخفيف ألمِها :

– لا ، يا جدتي . لا تظنّي بِهم الظنون .. قَسوةُ الحياة هي التي فرَضَت عَليهم الابتعاد . نعم / كانوا يأتونَها فتستقبلُهم بشوقِ الأمِّ الرؤوم . تنثرُ أمامَهم لهفةَ القلبِ الكَسيرِ ، وتبثّهم لوعةَ الوِحدةِ المُطبِقةِ على عِجافِ أيامِها التعبى [.. آ يا أولادي ؛ ما لها الأيامُ تَجدُب والانهاكُ يأخذُ منّي الكثيرَ . إنَّ أشباحَ الوحدةِ تَلهو وتعبثُ بزوايا البيتِ ، وأنتم ما عُدتُم تأبهونَ بي ..] كانوا يجيئون إليها ، وبعدَ كلِّ وداعٍ تكتشفُ تناقصَ حاجاتِ البيت ... في البِدءِ كانَ الاستحواذُ يتمُّ بطريقةِ الطَّلبِ المؤدَّب : هذه السجّادةُ أعجبتني ، يا أمّي / وتلكَ الثُّريّا تصلُحُ لغرفةِ استقبالِ بيتيَ الجَديد / وهذه الصحونُ احتاجُها تُحفاً في مَعرضي الذي اعتزُّ به / وهذا الكرسيُّ يُذكِّرُني بأبي فاعطنيه ... ثم تغيَّرت الوسائلُ ... صاروا يأخذونَ الحاجاتِ الثمينةَ ، الصغيرةَ خَفاءً تحتَ ملابسِهم ؛ مُنسلّين كاللصوصِ : أبي وأعمامي . وهيَ بعينِ الحُزنِ تتابعهم ؛ وبصبرِ الأمِّ الحاميةِ تَضغطُ على قلبِها الضعيفِ كاتمةً ألماً تحسّه يَنغلُّ كالسيفِ في صدرِها . [دوماً أكونُ مَعهم .. ودوماً أسمعُهم يتحدثونَ هَمساً ، مُقرّينَ أنْ لا جدوى مِمَّا تبقَّى لها مِن العُمرِ كأن الذي سفَحته عَرقاً ودماً وكبرياءً استحالَ هَشيماً لا نَفع منه ولا رَجاء] .. وإذا طُرِقَت البابُ وسَمِعت أحدَهم يُنادي

فزَّت في حَدقتيها بقايا الألقِ الشَّحيحِ ، وانفرجَ الفَمُ المزمومُ عن ابتسامةٍ سمِحةٍ . ضَغطت يَدي ، مُتمتمةً :

- انسي ما قُلتُه لكِ ، واعتبريه هَذياناً .... انهضي وافتحي البابَ ، لا تدعيه يُتعِبُ صَوتَهُ بالنداء .

وقائعٌ قَرَوية

1. .....

الداخلُ إلى قريتِنا سيكونَ يَسيراً عليه رؤيةَ حَجرٍ مُتعالٍ بهيئةِ شَجَرةٍ مُتَفَحِمةٍ ، هذا إذا كانت الشمسُ تُمارسُ فعلَ القَيلولةِ بعدَ سَمتٍ ساخنٍ ... وإذْ يستبدلُ النهارُ ساعاتِه يَحارُ النَّاظرُ في المَعنى؛ بيدَ أنَّ هذا لا يَعني شيئاً لأهلِ القريةِ ، ذلك أنَّهم اعتادوا استحالةَ الحَجرِ مَخلوقاً يُعانق قلباً . كما اعتادوا سَماعَ تأوهاتٍ تبتدىء مِن أدنى حلولِ انتصافِ الليلِ حتى تهشّم خَيط الأُفقِ ضوءاً .. يَحارُ الرائي وما مِن أحدٍ يُجيب عليه ... الشجرةُ ساعةَ التَّفحّمِ يَخشاها الصِّغارُ فلا يقربونَها .. لكنَّ الغريبَ هو ما تراهم يَتسلقونَ ساقَي المخلوقِ ادراكاً للقلبِ ... يفترشونَ الشُّغافَ وينصتون لمفرداتِ الحِكاية [حكايةُ المَخلوقِ الحَجريِّ تأخذُهم عبرَ دروبِ القلبِ المُحتَّضَن ... في القلبِ سبعُ غرفٍ موصدةٍ ، توارَب لَهم ستٌّ تقصُّ تاريخَ القريةِ ببيوتِها التي تَقلُّ زمَناً ، وتكثرُ آخرَ.. حتّى إذا بَلغوا السابعةَ صاحَ بِهم اهلوها صارخينَ بالعودة] .

الدَّاخلُ إلى قريتِنا سيدركُ بعدَ أمتارٍ من الهواجسِ بَيتاً ينأى ، على سفحِ المرتفعِ الصّاعدِ الى الجبلِ .. في البيتِ امرأةٌ عَجوزٌ هي التي تفتحُ البابَ السّابعَ بعدما تلقي مِن عَلٍ نظرةً غائمةً تمسحُ خارطةَ القرية .. الدَّاخلُ بفضولِ منقطعُ النظيرِ سيواجَهُ بشابٍّ تُضرّجه خناجرُ غزيرةً / نابتةً .. إلى جانبِه فتاةٌ تُبكيه أسىً ، تمارسُ خلعَ الأنصالِ مِن الجَّسدِ المُسجّى دونما فائدةٍ .. الفتاةُ تحملُ بعضَ ملامحٍ سَيسألُ الزائرُ نفسَه : لِمن تَكون ؟! ... ما أنْ يبرحَ المَكان ويُخلّفَ القريةَ وراءه حتّى تقفزُ إلى ذاكرتِه الاجابةُ ، حينها سيعودُ لبيتِ المرأةِ مُحمَّلاً بأسئلةٍ هائلةٍ فجّرتها المفاجأة ، لكنَّه سيباغتُ بفعلِ الزَّوالِ ، وستصطدمُ عيناه بالشَّجرةِ المُتفحِمّة تنتصبُ متصالبةً والصِّغارُ يَخشونَ الاقترابَ .

2. .....

ما كانَ صَغيراً ذلك المطعون بالتفكّر حتى ثبَّتَ قلبَه شُجيرةً لها حَفنةُ أزهارٍ عاطِرةٍ وحبيباتُ الشَّيبِ النافرةِ أعلى الاذنين ما أعاقت مُهمّة التَتَبُعِ . وقطعاً هي الفراشةُ ظلّت تَزدهي بربائعها السبعَ عَشرةَ ، وفقاعةِ ألوانِها ، وقفزاتِها الموكولةِ للأنسامِ أينَما تقودها تحتَ حلبةِ أنظارِه وطوقَ اهتماماته ... أمامَ عينيه استمرَّت ترسمُ تداخلاتٍ لونيّةً من التشظّي والاحتراق .. ترسُمُ ! وترسمُ ، فسمّاها " رسمية " تَيمناً بالهواءِ الذي شرعَ يزدحِمُ بموسيقى دفينةٍ ، وحوارٍ لا مرئي باعثٍ على تفجيرِ حُجيرات التفكّر .

هتف :" رسمية " ، فانثالت أقراصُ الشمسِ تُزخرِفُ فناءات الجناحين .

هتف " رسمية " ، فتبدّى سيلُ الماءِ بهيئةِ قوسٍ يشهقُ من أدنى انتصابِ شجرةِ الطَّلحِ (أسفلَ الوادي حيث زمرةُ شياهٍ تلتقطُ الورقَ المُتساقِطَ) صعوداً إلى هامةِ الجبل .

وثالثةً هتف : " رسمية " فأعلنت القريةُ موتَ فراشةٍ بسببِ الانتحارِ ثَمَلاً ، بينما المطعونُ بالتفكّر ظلَّ يَحكي القصةَ كالمذهولِ ، أو كالخارجِ من حُلمٍ .. وما كانَ صغيراً حيث ثبَّتَ قلبَه شُجيرةً لها حفنةُ أزهارٍ عاطرة .

3. .....

إزاءً الخُطى الرافلةِ على أديمِ الدَّربِ المَحفوفِ بالحجرِ الاسودِ شَعر بشيءٍ كالغيثِ ينثالُ فوقَ قطيفةِ الرَّملِ لمفازةٍ دواخلِه المَهجورةِ ؛ والقِدرُ المحمولُ عَملَت مِنه مِظلَّة أولت له مُهمتين : مهمّةُ الاستظلالِ مِن قيظِ الشمسِ ، وأخرى تَجنباً للعيونِ المزروعةِ التي ستبعثُ فضولَها وتغتالُ منها لحظاتٍ هناءٍ مُبتغى ... لم يكُن الذي يجري أمامَه حُلماً لأنَّ الحُلمَ لا يتكرَّر ، هو يلمحُها يومياً وفي هذا الحيّزِ من الزمنِ ، أي أنَّه لا يجعل حضورَها أمنيةً من بابِ الرؤيا ولو في حُلم . فهو يعالجُ الأمر من بابِ الاطمئنانِ على أنَّها ستأتي لا مَحال / ستأتي لأنَّها يوماً ما قالت له : " صباحُ الخير " عندما كانَ الطَّريقُ يَسترخي تحتَ خَدرِ قيلولةٍ ساخنةٍ فعرفَ أنَّ الخَطأ جاءَ مِن بابِ التلعثُم مُدركاً بحكمِ السنوات العَشر الذي يفوقها أنَّ أعماقَها ترهصُ ، وأنَّ الوقائعَ تُقرُّ أنَّها تمارسُ هذه الفوضى الفِكرية عندما تلتقي الآخرين . لذلك عاجلَها بابتسامةٍ لها سعةُ خمسِ تحيّاتٍ ، ثم اردفَها بشيءٍ أبيض مُستطيل يشبه علكة " ابو السهم " عرفته رسالةً ، لكنَّها لمْ تستطع الاستلامَ لأنَّ جهازَ الاستقبالِ كان مشوَّشاً ولم يكُن مُبرمَجاً حتى ... لذلك عادَ العلك/أقصد الرسالةَ إلى الجَّيبِ وما كانَ القدِرُ

مُمتلئاً عندما عادت مِن "الماجل/البركة" حتَّى أنَّ المالئةَ المُقعيةَ جوارِها قالت : إلى أينْ ؟! .. ومُندهِشةً أكمَلت : ستضحكُ أمُّكِ أو ربَّما تغضبُ ، أو قد تقولُ : "ما لها ابنتي هذه الايام ؟ إذا ما قاست مُستوى الماءِ مع حَجمِ القِدرِ .. " املأيه .. هيّا !!" .. ولم تَسمع .

بعودته فاجأه الصديقُ المُنتَظِر : هل هي غبيةٌ أمْ ظنَّنه علكاً ولم تأخذه كونَها كانت تمضغُ واحداً ووجدت أنْ لا حاجةَ للآخر؟!! "

في البيت كان عليه تمزيق الورقةِ كي يَكتبَ ثانيةً مُضافاً لها أسطرَ من العَتبِ لعدمِ الاستلامِ أو اللهفةٍ المُضادَّةِ المُدافةٍ بلوعةٍ لها حرارةُ المراجلِ فيما كانت هي تعنِّفُ الأنا العليا لعدَمِ اثباتِ قدرةِ الفطنةِ ، لائمةً أيضاً القدمين اللتين ما أدّيتا الثباتَ واستعاضتا عنه بالارتعاشِ ، عاضَّةً اللسانَ القائلَ بتحيةٍ في غيرِ وقتها ... وأخيراً أصرَّت : غداً عليكم يا مَجسّات الحواسِّ التأهبُ لأنَّ تِكرارَ الهفواتِ يقودُ للضجرِ ، وتقصد ضجرَه لا ضجرَها ؛ على غرارِ القائلِ " كثرةُ المِزاح تقلِّلُ الهيبةَ؟ .. وكانَ هوَ قد أنهى الكتابةَ مُقرِّراً اعادةَ سيناريو التسليمِ ، قائلاً بمثلِ ما صَمَّمت هيَ أو أكثر ....

حكاياتٌ عن الغرفِ المُعلَّقة

(1) احباط

خَلفَ نافذةٍ مُعلَّقةٍ في الطابقِ الثاني لقَصرٍ يطلُّ على وادٍ مُنسرِحٍ تَحتَ أفياءِ خضرةٍ وارفةٍ ثمَّةَ امرأةٌ جامدةٌ تتطلَّعُ بعينين محايدتين إلى اسرابِ أوَزٍ مُحلِّق في سَماءٍ مِن اللازورد .. وهناكَ ، وراءَ غابةِ صُنوبَرٍ داكنةٍ حَشدٌ مِن غيومٍ طَفقت تَزحفُ كجرادٍ أسود لتنقضَّ على بقايا قُرصٍ بلونِ البُرتُقال شرعَ يَغورُ في الأفق ... رَجلٌ يَعتلي حِصاناً جامحاً يأتي مُرتقياً التلّةَ باتجاهِ القَصرِ . يلوّح بيدِه ، وينادي بصوتٍ لاهِثٍ " ها... لو " .. تتأملُه المرأةُ باهتمامٍ ناضبٍ [هو كعادتِه – تقولُ في نفسِها– يأتي مُتعَباً ؛ مُنهَكاً .. يتركُ الحِصانَ قريباً من المِربضِ كي يقضمَ الحشيشَ الأخضرَ ؛ ويستديرُ . يتّخِذُ المَمَرَّ الاسمنتيَّ . يرتقي ثلاثَ درجاتٍ فيدخلُ فَناءَ القَصرِ ثمَ يدلِفُ مُخترقاً الصَّالة المُستطيلة وصولاً إلى الحَمَّام ليغتسِل] ... بعدَ وقتٍ تَسمَعُ اكرةَ البابِ تُدارُ فيدخلُ . يُحييّها .. يقتربُ منها . يطبعُ قُبلَةً على خدِّها . تظلُّ هي في وقفتِها كتمثالٍ مِن شَمع . تَتطلَّعُ في المدى البعيدِ فيما هو يتراجَعُ . وتسمعَه يَقول : " سأغفو قليلاً ." .. يَلتفتُ إلى سَريرٍ مُستكينٍ خلفَها . يَرمي بَجسَدِه المُتعَب فوقَه ، وَينام .... في المرجِ الأخضَر اليانع تسمعُ المرأةُ صَهيلاً فتنظرُ ؛ ترى الحِصانَ رافعاً عنقَه مُتطلعاً إلى مُهرتِه التي ظهرت من بين شُجيراتِ البلّوطِ المُتناثرة .. وبدورِها ترفعُ المُهرةُ رأسَها تتطلَّعُ إليه .. تتابعهُما المرأةُ باهتمامٍ .. هيَ كلُّ أصيلٍ تنتظرُ هذا اللقاء ، فتستيقظُ في حَدقتيها بواعثُ رؤىً خبيئةٍ وأطيافٍ غريبةٍ تلاحقُها في تأملِها للأشياءِ المُتحرِّكة ، المُغلَّفة بالأسرارِ والاسئلةِ المُبهَمة .. تتابعُ الحِصانَ وهوَ يَعدو إلى مُهرتِه .. تتأوَّه .. يَختلجُ قلبُها .. ترتعشُ شفتاها ... وفي كلِّ مَرةٍ تسرقُ اهتمامَها اسرابٌ من الإوَزِّ تُطرِّزُ السماءَ ؛ مُخلّفةً وراءَها أجواءً غائمةً ، ورياحاً مَجنونةً تتعقبُّها (تلكَ الاسرابُ شغوفةٌ بالحياةِ

ساعيةً للتواصلِ . تحلمُ بالدِّفءِ والأعشاش الآمنةِ والغوصِ في اعماقِ البُحيراتِ المُظلَّلةِ بوارفاتِ الشَّجَر). والمرأةُ المُنتصِبةُ خلفَ النافذةِ راودَها كَثيراً حُلمُ أنْ تَكون إوَّزَةً تُهاجرُ مع واحدةٍ مِن هذهِ الاسرابِ . لكنَّ حُلمَها ينطعنُ بخِنجَرِ اليَقظَةِ فتعودُ من جديدٍ خاويةً، جزِعةً، مُحبَطة .. تُحمحِمُ المُهرةُ من مكانِها فيما الحصانُ يدنو منها أكثرَ .. يروحُ يدورُ حولها في دائرةٍ واسعةٍ تَضيقُ تدريجياً ... تَتخايلُ أمامَه .. يَضربُ بحافريه الاماميتين حَجراً فيفتتُّه .. تَخرجُ المُهرةَ إلى السَّهلِ المَفتوحِ على الوادي .. تَخبُّ بخيلاءٍ مَقصود . يخبُّ خلفَها الحِصان (تختفي الموجوداتُ عَن عَيني المرأةِ وتحسُّ كما لو كانت تقفُ فوقَ رابيةٍ مَكشوفةٍ لا ترى سوى الحصانِ ومُهرتِه وهُما في خبَبِهما). تندفعُ المُهرةُ تعدو بمدياتٍ أوسع .. يتبعُها الحصانُ سَعياً لِّلِحاقِ بها .. يَقتربُ منها . ينطلقان بكلِّ نزقِهما .. تشاهدهما المرأةُ يلجّانِ قُرصَ الشمسِ الذي بقيَ نُصفُه مشعّاً . وتشاهدهما وهما يَسبحان في الفضاءِ البرتقالي .. يهدرُ في داخلِها احساسٌ غريبٌ وتلتفِتُ مَشدودَةً ، مُتوترةً لكنَّها تُفاجأ بالظُّلمَةِ تزحفُ في الغرفةِ وعيناها تصطدمان بهيكلِ الرجلِ الغارقِ في نَومٍ ثَقيل . فيتراءى لها شبحَ جثّةٍ غائرةٍ في تابوتٍ عتيق .

2 . خواء

نهضَت الشمسُ مِن وراءِ كثافةِ بساتينِ النَّخيلِ المُحتشِدة في الأفق ، فداهمت المدينةَ جيوشُ الضَّوءِ بسيوفٍ تبرقُ كالتِّبر ، وشَرعت تَهمي طلّاً من الصَّحو أيقظَ النائمينَ وسرقَهُم من أنسامٍ باردةٍ كانت تَتعطَّفُ عليهم بوَسنٍ آسر . لكنَّ الفتاةَ المَحجورةَ في غرفتِها المُعلَّقَةِ بالسَّطحَ كانت يَقِظَةً طوالَ الليل [اليَقظةُ المُستديمةُ سَرقَت مِن وجهِها نضارته . ومِن عينيها أحلاماً طريّةً ، جفَّت واستحالت أشباحاً ورؤىً جامدةً بينما ضَمُرَت شفتاها وتشققتا .] ولم تُفاجأ بعيونِ النَّهارِ تَقتربُ مِنها .. وحينَ شقَّ سيفُ الضوءِ حجابَ الزجاجةِ الخضراء للنافذةِ الصَّغيرةِ ، المُرتفعةِ قريباً مِن السَّقف دبَّ في وجهِ الفَتاةِ ألقٌ ، وبدَت كأنَّها تَستعيد حَيويَّةً فقدتها مِنذُ سنواتٍ .. أزاحت الزّجاجة الشَّفّافة التي تفصلُها عن العالمِ المَحسوس ، وأبعدت عنها اطاراً خَشبياً عتيقاً ، مُترجِلةً بفستانٍ توشّيه زهيراتٌ دقيقةٌ بهتَت ألوانُها فبدت كما لو كانت بِلونٍ واحد .. اقتربت من البابِ الموصَد فاشرعته .. غَسلَ الضوءُ الذهبي قامتَها الناحلةَ مُفشياً شحوباً مريراً كرَّست فيه السنواتُ المُنصرمةُ ذبولَ الأمواتِ المنسيين .. أطلَّت من المَمَرِّ – الذي

وقفت فيه– على فَناءِ المَنزلِ فسقاها المَشهدُ الداخلي ماءَ الحياةِ واستدارت مُتَّخِذَةً السلَّم نزولاً إلى هُناك ... هناكَ وقفَت أمامَ بابِ غرفةٍ موصدة فتذكَّرت أنَّ هذه الغرفة كانت تعودُ لها ، وأنَّها تتذكَّر موجوداتها تفصيلاً .. رفعت يَدَها فأزالت الرِّتاجَ ودلَفت . وجد الضوءُ فرصةً للهجومِ فاندفعَ من ورائِها . ولوهلةٍ غَمرَها الذهولُ اذ اكتشفت أنَّ كلَّ شيءٍ لم يتغيَّر : السريرُ وشرشفُه / المرآةُ البيضويةُ المؤطَّرةُ بالصاجِ المُزخرَف / صندوقُ تنضيدِ الأفرشةِ / بِساطُ الأرضِ ؛ وحتى شمعةِ تعليقِ الملابس ... وعلى الجدارِ فاجأتها صورتان عرفت الأولى لزوجِها ، أمّا الثانية فكانت لامرأةٍ بلا ملامح .. تملَّكَها الحزنُ ، واستدعت حِرقةً خزينةً كانت كامنةً فدبَّت فيها الحياةُ بغتَةً ... تركَت الموجودات خلفَها ، واستدارت تغتسلُ بالضّوء ؛ وتحرَّكت بإنهاكٍ لا تقوى على مقاومته .. كانت تسعى لنيلِ هواءٍ هرَبَ منها .. رفعت يدَها تَمسكُ عنقَها متوسِلَةً بنسمةٍ تُديمُ لها الحياة ... تحرَّكت ساعيةً للخروجِ من صَمتِ الأشياءِ ؛ غيرَ أنَّ خطواتِها ثَقُلَت ، فانهارت .. راحت تزحفُ .. اقتربت من البابِ الرئيسي .. رفعت يدَها لتديرَ اكرةَ البابِ فارتطمت بقايا اليدِ أرضاً .

خلفَ البابِ / في فسحةِ الزقاقِ ثمَّةَ صِبيةٌ يلعبون . سألَ أحدُهم صحبَه ، مُستفسِراً :

–هل سمعتمُ شيئاً ؟!

توقَّفوا يتطلعون بوجوهِ بعضِهم ... أخيراً قالوا :

–كلّا، كلّا .. البيتُ مُقفَلٌ من زمان .

3. حُطام

بعدَ زمانٍ .. زمانٌ عمرهُ سنواتٌ هاربةٌ صرفتْها في الغربةِ والضَّياع عُدتُ إلى بيتنا .. أولَ شيءٍ فعلتُه هو أنّي صعدتُ إلى الغرفةِ العليا استذكِر روحَ أخي الكبير الذي ماتَ دون أنْ أشهدَ لحظاتِ وفاتِه ... كان البابُ مُغلقاً يكسوهُ الغبار .. حدَّقتُ بعينِ الطفولةِ في ثقبِ المفتاحِ فتمثَّلَ أمامي شعرٌ أجعد ، تصبغهُ الحِنّاء ، وتتكسَّر على ثناياه شلالاتُ النّور المُنسكب من مُصباحٍ أصفر يتدلّى من السقف .. وعلى جانبٍ اقتنصتُ وجَهَ أخي مُحمرّاً ، وعيناه سائحتان فوق انثيالِ الشَّعرِ الذي استدارت صاحبتُه لتكشفَ وجَهاً دائرياً ذا جَبهةٍ عريضةٍ وخدّين طافحين بالبشر ، وعينين لمحتهما تتَّقِدان وتستقران في وجهِ أخي كأنَّهما تمتصان نضارته ... تذكَّرتُ وقتها أنّي طرقتُ البابَ وأنا لا أفهمُ عَبثي ، ولا ادري إلّا بعدما

كَبُرتُ ، وصارت حفنةُ من السنواتِ تَملأ جيوبي أنَّ فِعلتي تلك كانت اغتيالاً لسعادةٍ ينعم بها مع فتاته ... رأيتُه يفتحُ البابَ وينظر إليَّ ببرود . ومِن ورائِه لَمحتُ الوجهَ الجميلَ يُطوّقه الشَّعرُ الحنّيُّ وابتسامةً تبوحُ بها شفتاها الورديتان .

اليوم ، وبعدما صارت حَفنةُ السنوات أكواماً تَملأ جيوبي كلَّها إلّا جيباً واحداً كنتُ أخطو في شارعٍ شُقَّ على انقاضِ بيوتنا التي أزيلت فأزالت معها اعشاشَنا ، وساحات مراحِنا وألعابِنا التي لا تنتهي إلا بعيونٍ تنطبقُ تَعبى لا تقاوم النعاس . كانَ ولدي الصغير إلى جانبي يسير ، مُمسكاً بيدي . هزَّني هزَّةً مفاجئة فانتبهتُ إليه . أبصرتُه يتطلَّع إلى ركنٍ قريب :

–أهذه مجنونةٌ ، يا أبي ؟ .. سألني بحيرة الصغار .

تقفُ امرأةٌ تَخطَّت سنوات كهولتها ، مُنحنيةً تتلفَّعُ بعباءةٍ رثّةٍ ، موحلةٍ .اكتسحت وجهَهَا الغضونُ ، وسالت شُعيراتٌ بيضاء مُشعثة من تحت فوطةٍ متَّسخة تطوِّقُ وجهَها .. اقتربتُ منها . اخرجتُ قطعةَ نقودٍ من جَيبي .. امتدَّت يدُها ، وتهيأ الكفُّ المفتوح لالتقاطِها . لكنَّها ... وعلى نحوٍ غَريبٍ انسحبَت .. تَطلعتُ في وجهِها مُستغرِباً : أتراها مَجنونةٌ حقّاً ؟! ... تفرَّست فيَّ بعينين قلقتين ، اتَّسَعتا وكادتا تلتهمانني .. اختلَجت شفتاها وانقبضتا . وكانت على وشكِ التفوّه بكلماتٍ حبيسةٍ ، بَيدَ أنَّها طأطأت رأسَها واسترسلت بنشيج مَسموع ؛ أعقبَهُ تقاطرُ دمعٍ يشوبه قذىً على دراهمَ كانت تملأ كفَّها العجفاء .

4 . اشراقاتٌ غاربة

التفكيرُ في اعذارِه المُتكررةِ بحجّةِ السَّفرِ لأيامٍ ، مع دكنةِ الغَسَقِ ، وثقلِ اللحظات أشاعوا داخلَها احساساً بالوحشةِ والانقباضِ وتركوها تتمثَّل جمودية الأشياءِ المحيطةِ بها فبدت غرفتُها التي صيَّرتها مَلاذاً ومَملكةً لتفاعل وتناسل افكارِها الجيّاشةِ زنزانةٌ يقبض هواؤها على انفاسِها فيجعلها تتضايقُ وتختنق [كانت وردةُ القُرنفِل رسالةً أولى في سِفر حبِّهما الذي نَما على هدهدةِ صوتيهما ، وحنو ايديهما الناعمة .. كلَّ يومٍ كانا يشاهدانه يَعلو ويَبتسم ، فيلمحان فيه رؤى حياتهما القادمة ورياض سعادتهما المُمتدة بلا حدود .. هو يقولُ : دعيني احرصُ عليه فأجعل قلبي مِظلةً له مِن لظى الزمن ... وهي تقول : لا ، دَعهُ لي فأنا أجيدُ الرعايةَ ... وكان يضحك ، وهي تضحك . يضحكان سويةً ... يضمّانه إلى جوانحهما ، ثم يتعانقان ، ويغيبان .. يغيبان .] . وقررت الخروج تاركةً أشياءه التي تراكمت بفعلِ الأيام وآخر قرنفلةٍ داستها أقدامُ الذبولِ ، وخلَّفت ساقَها ينهصرُ على عُنقِ دورقِ الماء .... نزلت لتدخلَ الحَمّام

وتستحم ؛ وخرجت ... زيّنَت وجهَها ببعضِ المساحيق ، تلفَّعت بالعباءةِ ، واندفعت قاصدةً السوقَ الكبير ... هناك فكَّرت أنْ تَشتري قارورةَ عِطرٍ ستهديها له حالَ عودتِه مِن السَّفر [إنَّ حياتَهما غدت مأسورةً بالخمولِ والجمودِ ؛ والبيتُ بلا أطفالٍ كشجرةٍ وارفةٍ دونَ عصافير . ثمَّ أنَّ السنوات العديدةَ المُنصرِمةَ أثقلت عليه بمطارقَ الرتابةِ والمَلل بينما جعلتها تلوذ بالصبِّر مُنتظرةً الفرجَ الذي لا يبخل به خالقُها /حاشاه] ... استقبلتها أسواقٌ فرعيةٌ ، واجهات مَحلاتِها تنيرها مَصابيح تتوهَّجُ معروضاتها التي جلّها : مَساحيقُ تجميلٍ / اكسسوارات/ قناني عطورٍ ... وقفت تتأملُ احداها فاختارت أجملَ شَكلٍ وأعذبَ شذا ؛ ثم استدارت خارجةً .. وبدلاً مِن أنْ تعود فتدخل السوقَ الكبيرَ مُجدداً فضَّلَت الخروجَ من زقاقٍ فرعي ... وكان عليها أنْ تدخلَ أزقَّةً عديدة كيما تصلَ الشارعَ الذي يأخذُها إلى بيتِها .

قطعت زقاقاً ، وولجَت آخر ؛ وتلقَّفها زقاقٌ ثالثٌ في منتصفِه جوبِهَت بامرأةٍ عرفتها مِن أول نظرةٍ ... بينهما دارَ السلام ، وأعقبَه العتاب :

–لقد نسيتِ عشرتنا وسنوات صبانا – هتفت بها المرأةُ– أتنتقلينَ لحارتِنا ولا تُعلميننا ؟!

وقبل أن تُبدي عدم فهمِها لفحوى الكلام كانت المرأةُ تواصلُ العتبَ :

–كلَّ يومٍ نرى زوجَكِ يدخل ذاك البيت ويخرج ، ونحن نقول يا لها مِن جاحِدة .

كان عتاباً فجَّرَ داخلَها رُعباً فأحالَها هَشيماً نسيت خلالَه أنَّها تحملُ قارورةَ عِطر . كما نسيت أنَّ القارورةَ قد هَوت وتشظَّت ، فتبخَّرَ سائلُها الاثيري .

5 . مَجاهيل

نباحُ الكِلابِ ، الأصواتُ الوحيدةُ التي كانت تَستبيحُ عُريَ السُّكون لتلكَ الليلةِ الدَّهماءِ ، الموحِشةِ . أمّا هي فكانَ الصَّمتُ داخلَها تَستفزّهُ بقايا وعودٍ وكلماتِ وَداعٍ تَعدُ باللقاءِ حالما تَتحقَّقُ الرَّغبات [قالَ إنّه سيجتازُ بُحوراً ، ويَقطعُ براريَ .. يُعاشرُ أناساً لا يمُت لدمِهم ولغاتهم بصلةٍ . سَيتحملُ صِعابَ اعمالِهم وسوءَ نواياهم . سيتغاضى حتى عن جورِهم واضطهادِهم .] ، إنّها تَتَوحَّدُ معَ ظُلمةِ غرفتِها المُعلَّقةِ ، قابعةً بين جدرانِها ، وليس امامَها غيرُ نافذةٍ مُستطيلةٍ هي عينُها التي تَتَطلَّع من خلالِها لزحوفِ الليل .. تُضيءُ أمام عينيها ايماضاتٌ متفاوتةُ لوجهِه . فتارةً يضحكُ ، وتارةً يَهمسُ ، وأخرى يَغضبُ ، وأخرى يتأمَّلُ ، وأخرى يتأوَّهُ .. يَتأوَّهُ بسببِ مَرارةِ الغُربَةِ وحنينِ القلبِ المُتعطِّش للعودةِ واللقاءِ . يَتمثَّلُ إزاءَها يرجوها أنْ تُداري حالَها مُداراةً للجنين ، أنْ لا تتعب / لا تضجر / لا تسهر طويلاً . فتأوَّهَت

هي الأخرى بألمٍ : أنتَ تطلبُ المستحيلَ ... واستجارَ مُتضرِّعاً : لا .. لا ... فهمَّت بالتراجُعِ لتطمئنَهُ ؛ لكنَّ نعيبَ بومٍ قريبٍ أنطلقَ كالسهمِ المُصيبِ أجفلَها وغيَّبَ عنها صورتَهُ ، ثم أسقطَها في قَبضةِ النَّدمِ ... تساءلت بِحرقةٍ : لماذا عارضتُه ؟ كانَ عليَّ ارضاءه . أقولُ لكَ ما تريد ، عُد إليَّ فقط [عودتُهُ تعني لها الكثيرُ ، الكثير ..، آ، لو تَعلمينَ ؛ الشمسُ هنا حارقةٌ / الأرضُ قَفراءُ / الناسُ عدائيون أجلاف ترمقُنا عيونُهم بِحذرٍ واستعلاء ، تلاحقُنا أنّى مَشينا أو توقَّفنا أو انعطفنا كأنَّنا أسرى مَجذومون . أمّا العملُ بتفاصيله وحيثياته فالحديثُ عنه يطول .. لعلَّها أسابيع وأعودُ اليكما .. أوّاه ، هل تريننني أعود ؟! .. " كفى!!.. كفى!! الآن .. " ، أسمعُ مطارقَ الآلاتِ العملاقةِ تهوي ، تضربُ صدرَ الارض . سندخلُ دويَّها بعد قليل ، فلا ندري إذا كنّا سنخرج منها أحياءً أم ستسحقنا بأسنانِها المُتَحفِّزةِ ؟] ... تراجَعت فزِعَةً ، مرتعبِةً أحسَّت الدويَّ يَعلو ويتفاقمُ ، يَعلو هيمنةً وهياجاً فيتفجَّر عنيفاً ، مهولاً في أذنيها ، مُمزِّقاً في رأسِها ملامحَ الوجهِ الودود ، راسماً فعلَ الأسنانِ المنطبقة .. خالته مُهشَماً ، مَرمياً في العَراء ، فارتدَّت عن النافذةِ لائذةً بزوايا الغرفةِ ، وهياكل الأثاثِ الجاثمة – رأتها بعين الرُّعب– كالأجداث ... ضمَّت ذراعيها على بطنِها النافرة فيما تَفجَّر نَعيبُ البوم عائداً ، نافذاً إلى مسامِعها ، مُمتزِجاً مَع دوّاماتِ الدَّويِّ الهائلِ ، فضَجَّ فضاءُ الغرفةِ بصرخاتِ الفجيعةِ ، والاستغاثةِ ، والعَزاء .

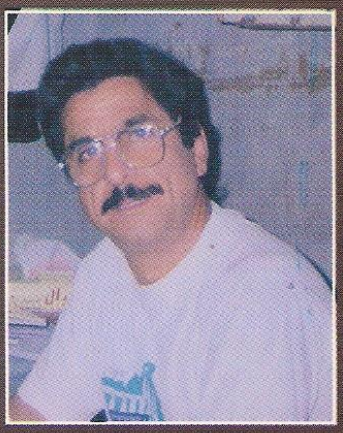

زيد الشهيد

حكايات عن الغرف المعلّقة

بدءاً هي خلجةٌ تنبني من تمازج صوري لتنتهي بحال .. رؤيا مستحالة لرؤية .. واقع استوحاه الخيال سعياً لتقبُّله مُتحقّقاً.

القصة القصيرة جداً شخوصٌ أريد لها أن تتوجد لتقول: ومكانٌ يقدَّم له وصفٌ على أنّه زمان ؛ إنبثاق خلْقي حتّمته ظروف تشكّله في فضاءات التلقي.

أكتب القصة القصيرة جداً كحاجة مُلحّة يتطلّبها اليومي ، مثلما أحسبها تنفيساً لهمٍّ، وبوحاً إنْ لم يرسمه حبر الروح غدا غباراً من ومضةٍ ستتبدّد لحظة الإستدارة ونقل الخُطى.

كانت كتابتي التدوينية لأغلب نصوص هذه المجموعة تسير ـ إنتاجاً ونشراً ـ بخطٍّ متواز مع تدوينات مجموعة «مدينة الحجر» الصادرة عام 1994، لكن عصا الحصار التي استحالت لحاقاً تتعقبنا أنّى خطونا أرهقت مشروع إصدارها في مجموعة وتركتنا نلهث باتجاه المحطّات الخالية من همسات الرعب... تشظّت الحكايا.. لم تعد غير الحقائب نتداولها.. في جوفها ترحل أفكارنا المدوّنة على ورق الذكرى وبين طيّات ملابسنا المختلطة بلا انتظام، فتتالت الأعوام .. وتتالت .. وتتالت !!

أزمنة AZMINAH
تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤ ● ص.ب: ٩٥٠٣٥٢ ، عمّان ١١١٩٥ الأردن
ISBN 9957-09-132-8 (ردمك)